وهكذا يكون عن طريق آي الذّكر الحكيم تفصيل الأمور وتبيين الحلال والحرام . وإلى هذا المعنى أشارت الآية الكريمة التّالية فإلى .

الآيـــة رقـــم (٥٥)

قال تعالى : ﴿ وكذلك نفصّل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين ﴾ .

إنّ ربّ العزّة ، فى مثل هذه الطّرائق من تبيين الحقائق وتوضيح الأمور وإظهار معالم الحقّ وتعيين عناصر الباطل ، يفصّل آيات الكتاب العزيز ليتّضح الصّراط المستقيم الّذى يسلكه المتّقون ولتستبين سبيل الباطل الّتى يسلكها المجرمون . وحينما تتّضح معالم الصّراط المستقيم فالمطلوب من عباد الله تعالى أن يسلكوا هذا السّبيل وأن يجتنبوا سبيل المجرمين . والآية الكريمة تخلع على الكافرين صفة الإجرام لأنّهم جمعوا بين مجموعةٍ من الصّفات السّيّئة والموبقات . إنّهم كفروا بالله تعالى وكذّبوا رسوله ﷺ وجحدوا بآيات الله تعالى واستهزءوا واستكبروا وطلبوا من الرّسول ﷺ أن يطرد المؤمنين وارتكبوا الذّنب الّذى لا يغفره الله تعالى وهو الإشراك معه جلّ وعلا غيره . وفى مقابل وصف الآية الكريمة الكافرين بأنّهم مجرمون تصف الآية الكريمة السّابقة الّذين آمنوا بأهمّ صفاتهم وهي صفة الإيمان حتّى فى حال عملهم السّوء بجهالةٍ شريطة التّوبة والإيمان وعمل الصّالحات . وفى مقابل حثّ المصطفى ﷺ على القرب من المؤمنين واللّصوق بهم يحدث العكس فى حقّ غير المؤمنين ويتّضح ذلك ابتداءً فى الآية الكريمة التّالية فإلى .

الآيـــة رقـــم (٥٦)

قال تعالى : ﴿ قل إنّى نُهيت أن أعبد الّذين تدعون من دون الله . قل لا أتّبع أهواءكم قد ضللت إذًا وما أنا من المهتدين ﴾ .

يجىء فى الآية الكريمة جملة : ﴿ قل ﴾ خطابًا للمصطفى ﷺ مرّتين اثنتين . وفى المرّة الأولى يؤمر عليه الصّلاة والسّلام أن يقول للمشركين إنّ ربّ العزّة قد نهاه عليه الصّلاة والسّلام أن يعبد الآلهة الّتى يعبدها المشركون ويدعونها من دون الله تعالى . وكأنّ الجزئيّة الكريمة تتعلّق بالآلهة المزعومة الّتى يعبدها المشركون والّتى لا تملك لنفسها فضلاً عن سواها ضرًّا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورا . ويلاحظ التّنويع فى التّعبير بشأن القول ﴿ أعبد ﴾ و: ﴿ تدعون ﴾ وفى المرّة الأخرى يؤمر عليه الصّلاة والسّلام أن يقول للمشركين إنّه عليه الصّلاة والسّلام لا يتّبع أهواءهم فى عبادة غير الله تعالى وفى دعاء الأصنام والأوثان والآلهة المزعومة الّتى ما أنزل الله تعالى بها من سلطان . إنّهم فى عبادة الأصنام إنّما يتّبعون أهواءهم وأوهامهم وظنونهم : ﴿ وإنّ الظّنّ لا يغنى من الحقّ شيئا ﴾[1] .

والعجيب فى أمر المشركين أنّهم يريدون من المصطفى ﷺ أن يترك دين التّوحيد إلى الشّرك ، وأن يتحوّل من الهدى إلى الضّلالة ، وأن يهجر الحقّ الّذى أوحاه الله تعالى إليه وخصّه به ويتّبع حماقاتهم وسخافاتهم .

ومع أنّ الخطاب فى الموضعين للمصطفى ﷺ فإنّ كلّ فردٍ من أفراد الأمّة المحمّديّة وراء ذلك يتّجه له الخطاب . وها هو ذا يؤمر بأن يقول لأولئك المغفّلين : ﴿ لا أتّبع أهواءكم قد ضللت إذًا وما أنا من المهتدين ﴾ بعد أن قال لهم كما جاء فى الآية الكريمة : ﴿ إنّى نهيت أن أعبد الّذين تدعون من دون الله ﴾ .

---

(١) سورة النّجم ٢٨ .

وإذا كان صدر الآية الكريمة يتعلّق بالآلهة المزعومة المعبودة من دون الله تعالى فإنّ عجزها يتعلّق بالضّالّين الظّالمين الّذين صرفوا العبادة عن الله تعالى الّذى يستحقّها وحده دون سواه . ومن البيّن أنّنا بصدد تقليبٍ للمعنى على وجوهه المختلفة وإلحاحٍ بعيد المدى عليه . إنّنا بصدد نهيٍ عن اتّباع الأهواء ، وتقرير ضلال من اتّبع الهوى ، ونفي الهدى عنه . وهكذا يتبيّن عدم الاكتفاء بإثبات الضّلال إنّما التّجاوز إلى تأكيده بنفي الهدى . وبعد السّلب يأتى الإيجاب ، وبعد التّخلية تأتى التّحلية بإثبات الهدى الّذى أوحاه الله تعالى خير الفاصلين الّذى يقصّ الحقّ إلى خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين وكان ذلك فى الآية الكريمة التّالية فإلى .

الآيـــة رقـــم (٥٧)

قال تعالى : ﴿ قل إنّى على بيّنةٍ من ربّى وكذّبتم به . ما عندى ما تستعجلون به. إن الحُكْم إلاّ لله يقصّ الحقّ وهو خير الفاصلين ﴾ .

تبدأ الآية الكريمة كسابقتها بمخاطبة المصطفى ﷺ فى هذه السّورة الكريمة المكّيّة الّتى نزلت فيما يقال جملةً واحدة بحيث إنّ جملة : ﴿ قل ﴾ تجىء فيها بأكثر من أيّ سورةٍ أخرى من سور المصحف الشّريف . إنّ الآية الكريمة تأمر المصطفى ﷺ أن يواصل خطابه للمشركين قائلاً بأنّه عليه الصّلاة والسّلام على بيّنةٍ من ربّه جلّ وعلا وبرهان ووضوح حجّةٍ ونصوع بيان . وانظر إلى لفظ الرّبّ المتّصل به ضمير المتكلّم. والمعروف أنّ لفظ الرّبّ يستعمل فى القرآن الكريم فى مواطن الخصوص والإحساس فى الأعماق بالرّضا والامتنان لنعم الله تعالى العظيمة وآلائه الجسيمة وفى مقدّمتها تربية الله تعالى عباده بنعمه وتنشئتهم بآلائه جلّ وعلا . والعجيب فى أمر أولئك المشركين أنّهم كذّبوا بهذا الرّبّ المنعم المتفضّل البرّ الرّءوف الرّحيم . بل إنّ أولئك المشركين المكذّبين ليقدّمون أبلغ الدّليل على حمقهم وسفههم وغبائهم .

إنّهم تجاوزوا منتهى ما يمكن أن يأتيه المكذّب إلى إعطاء الدّليل على أنّهم انحطّوا كثيرًا عن درك الأنعام الّتى لا عقل لها والّتى تحرص بغريزتها على ما ينفعها . إنّهم عطّلوا عقولهم وحرصوا على ما يضرّهم ولا ينفعهم . إنّهم يقومون بما أشار إليه قوله تعالى على لسانهم فى سورة الأنفال[1] : ﴿ وإذ قالوا اللّهمّ إن كان هذا هو الحقّ من عندك فأمطر علينا حجارةً من السّماء أو ائتنا بعذابٍ أليم ﴾ إنّ هؤلاء الحمقى المغفّلين يقولون استهزاءً واستخفافًا يا ألله : إن كان هذا القرآن الكريم هو الحقّ من عندك الّذى أوحيت به إلى رسولك محمّد كما يقول فأمطر علينا حجارةً من السّماء أو ائتنا بعذابٍ أليم . إنّهم بدلاً من أن يسألوا الله تعالى الهداية وصرف العذاب وشمول الرّحمة هم يستعجلون أسوأ أنواع العذاب . الحجارة من السّماء أو أيّ نوعٍ آخر من أنواع العذاب لا يقلّ شدّةً وحدّةً عن الحجارة الّتى تهطل من السّماء .

وإنّ المصطفى ﷺ الّذى أمره الله تعالى من قبل أن يقول للمشركين فى آيةٍ كريمة من هذه السّورة الكريمة : ﴿ قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ﴾ يأمره الله تعالى بشأن العذاب الّذى يستعجله المشركون أن يقول لهم كما جاء فى هذه الآية الكريمة : ﴿ ما عندى ما تستعجلون به ﴾ إنّ المصطفى ﷺ واحدٌ من البشر ولكنّه موحًى إليه . وهو لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا ولا لغيره ، وهذا من باب الأَوْلى والأَحْرى . كما تأمر الآية الكريمة المصطفى ﷺ أن يقول للمشركين : ﴿ إن الحكم إلاّ لله يقصّ الحقّ وهو خير الفاصلين ﴾ والمعنى : ما الحكم إلاّ لله تعالى وحده لا شريك له الّذى إن شاء عجّل لكم العذاب وإن شاء أخّره . إنّه جلّ وعلا يقصّ فيما يوحيه إليّ الحقّ ويقول الصّدق ، وإنّه لا شكّ فى شيءٍ من هذا الوحي ولا ريب . وهو جلّ وعلا خير الفاصلين وأعدل العادلين وأحكم الحاكمين . ونستطيع أن نفهم من لفظ : ﴿ خير ﴾ جانب الخيريّة الّذى يشبع بطبعه النّفس

---

(١) الآية ٣٢ .

ويرضى الضّمير . وأن نفهم من لفظ : ﴿ الفاصلين ﴾ جانب العدل أو الحكم الّذى يقنع بطبعه العقل ويرضى الفكر . إنّ الخير كلّ الخير فى أحكام الله تعالى الّذى لا يظلم مثقال ذرّة وإن تك الذّرّة حسنةً يضاعفها ويؤت من لدنه أجرًا عظيمًا وثوابًا جزيلا . والمعروف أنّ ربّ العزّة لم يشأ إنزال العذاب العاجل بالقوم ، بل إنّه جلّ وعلا لم يشأ أن يلبّي اقتراحات كفّار مكّة بشأن الآيات المادّيّة الّتى طلبوا من النّبيّ ﷺ تحقيقها لأنّ فى إنزال الآيات المقترحة استئصال شأفة كفّار مكّة لأنّهم لن يؤمنوا بها تمامًا كما لم يؤمنوا بأنصع الآيات وكبرى المعجزات آي الذّكر الحكيم . والآية الكريمة الأخيرة فى القسم تؤكّد بشريّة المصطفى ﷺ فى هذا الشّأن وتؤكّد عجزه عليه الصّلاة والسّلام عن تحقيق العذاب الّذى استعجله الكافرون وإن صادف الاستعجال رغبة المصطفى ﷺ فإلى .

الآيـــة رقـــم (٥٨)

قال تعالى : ﴿ قل لو أنّ عندى ما تستعجلون به لقضي الأمر بينى وبينكم والله أعلم بالظالمين ﴾ .

إنّ الآية الكريمة تأمر المصطفى ﷺ أن يقول لأولئك المستهزئين بعذاب الله تعالى لو أنّ عندى ما تستعجلون به من العذاب لقُضي الأمر بينى وبينكم وانتهى الخصام بينى وبينكم بإنزال العذاب عليكم وإلحاق الأذى بكم نزولاً على رغبتكم . وقد أعلنت على رءوس الأشهاد بأنّ إنزال العذاب أو إمساكه ، تعجيل الأذى أو تأخيره، بيد الله تعالى وحده لا شريك له الّذى هو أعلم بالظّالمين والقادر على أخذهم إن شاء أخذ عزيزٍ مقتدر . وإنّ لسان حال الآية الكريمة يريد من الكافرين أن يستفيدوا من الإمهال وأن يتوبوا إلى الله تعالى توبةً نصوحا . إنّ الله سبحانه وتعالى هو الرّءوف الرّحيم ، وإنّ المصطفى ﷺ هو الرّءوف الرّحيم كذلك ؟ ثبت

فى الصّحيحين من طريق ابن وهب عن يونس عن الزّهريّ عن عائشة أنّها قالت لرسول الله ﷺ يا رسول الله هل أتى عليك يوم كان أشدّ من يوم أُحُد فقال : لقد لقيت من قومك وكان أشدّ ما لقيت منه يوم العقبة إذ عرضت نفسي على ابن عبد يا ليل ابن عبد كلال فلم يجبنى إلى ما أردت فانطلقت وأنا مهمومٌ على وجهى فلم أستفق إلاّ بقرن الثّعالب فرفعت رأسى فإذا أنا بسحابةٍ قد ظلّلتنى فنظرت فإذا فيها جبريل عليه السّلام فنادانى فقال إنّ الله قد سمع قول قومك لك وما ردّوا عليك وقد بعثت إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم . قال فنادانى ملك الجبال وسلّم عليّ ثمّ قال : يا محمّد إنّ الله قد سمع قول قومك لك وقد بعثنى ربّك إليك لتأمرنى بأمرك فيما شئت ، إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين(١) فقال رسول الله ﷺ : بل أرجو أن يخرج مِنْ أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئا . وهذا لفظ مسلم(٢) . قال تعالى : ﴿ قل لو أنّ عندى ما تستعجلون به لقضي الأمر بينى وبينكم . والله أعلم بالظّالمين ﴾ .

(١) الأخشبان تثنية الأخشب : جبلان يضافان تارةً إلى مكّة وتارةً إلى منى وهما واحد . معجم البلدان .

(٢) تفسير ابن كثير ٢ / ١٣٦ .

[٦]

« من مظاهر علمه جلّ وعلا وقدرته »

الآيـــات (٥٩ ـ ٦٧)

۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى
ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ
فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾
وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ
يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ
ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ
وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ
رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ
أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن
ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ
لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ
ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا
مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم
بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾
وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ
نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾

تدور آيات القسم حول تبيين علم الله تعالى وقدرته . ويبدأ السّياق بتقرير علم الله تعالى وحده لا شريك له بمفاتح الغيب الخمسة الّتى نصّ عليها قوله تعالى فى آخر سورة لقمان : ﴿ إنّ الله عنده علم السّاعة وينزّل الغيث ويعلم ما فى الأرحام وما تدرى نفسٌ ماذا تكسب غدًا وما تدرى نفسٌ بأيّ أرضٍ تموت . إنّ الله عليمٌ خبير﴾ وبعد حصر السّياق العلم بمفاتح الغيب الخمسة فى الذّات العليّة يتحوّل إلى تبيين علم الله تعالى كلّ ما وراء ذلك متّخذًا من بعض عناصر الشّجرة سلّمًا يتدرّج معه العلم إلى الأعلى ، فثمّة العلم بما يسقط من ورقةٍ ، وللعين دورها بشأن سقوط الورقة فى النّور فى حقّنا ، وثمّة العلم بالحبّة الّتى تسقط فى ظلمات الأرض وقد تختفى فينجم من ذلك فلق الحبّة وكذلك النّواة ، وللأذن دورها بشأن سقوط الحبّة فى الظّلام فى حقّنا . وثمّة العلم بالرّطب من الثّمر واليابس . وللعين والأذن والعقل أدوارها فى النّور والظّلام فى حقّنا . وهكذا يسلمنا كلٌّ من الرّطب واليابس الّذى يتدبّره العقل ويتأمّله الفكر إلى الكتاب المبين أو اللّوح المحفوظ الّذى يحتار العقل فيما يشتمل عليه من علم . وبذلك يكون للعقل دوره الموفور فى التّفكّر فى كلٍّ من مفاتح الغيب الخمسة وفى الكتاب المبين . ولمّا كان اللّيل أشدّ وضوحًا فى الآية الكريمة من النّهار فقد تمّ التّحوّل إلى اللّيل الّذى يتوفّانا الله تعالى فيه بالنّوم ، وإلى النّهار الّذى يبعثنا الله تعالى فيه ، وذلك من زاوية دلالة التّوفّى فى اللّيل على القدرة، والعلم بالكسب أو الجرح فى النّهار على إحاطة الذّات العليّة علمًا بكلّ قولٍ وفعلٍ ونيّة . وتتجلّى ظاهرة تلاؤم الأصوات فى أرفع صورها فى القول : ﴿ ويعلم ما جرحتم بالنّهار ﴾ الّذى يوافق من الوجهة الصّوتيّة شطر بحر الوافر من الشّعر : مفاعلتن فعول . ويكون البعث نهارًا لاستيفاء الأجل ، وللعمل فى الدّار الأولى استعدادًا للقاء الله تعالى وللبعث الّذى رشّح لذكره القول : ﴿ ثمّ يبعثكم

فيه﴾ وللحساب والجزاء . ويكون للقدرة دورها الواضح فى تقرير السّياق قهر الله تعالى فوق عباده بخضوعهم لمشيئته طوعًا أو كرها ، وإرسال الله تعالى الملائكة الحفظة الكاتبين ، الّذين يحفظ الواحد منهم الإنسان من خلفه وأمامه ، والّذين يكتب الواحد منهم عمل الإنسان من يمينه ، وهذا عمل كاتب الحسنات ، ومن شماله ، وهذا عمل كاتب السّيّئات . حتّى إذا جاء أَحَدَنا الموت توفّانا رسل الله تعالى وهم لا يفرّطون ولا يقصّرون ، ثمّ نردّ إلى الله تعالى مولانا الحقّ ، أحكم الحاكمين وأسرع الحاسبين . ولّما كان كلّ ذلك الإنذار لم يستفد منه أولئك المكذّبون فإنّ السّياق يأمر المصطفى ﷺ أن يسألهم عن الّذي ينجّيهم من ظلمات البرّ والبحر يدعونه من الأعماق جهرًا وسرًّا ، علانيةً وخفاءً ، مقسمين ساعة الشّدّة بالله العظيم لئن أنجاهم عزّ وجلّ من هذه المحنة وتلك الشّدّة ليكونُنّ من الشّاكرين العابدين الله تعالى وحده لا شريك له . ويؤمر المصطفى ﷺ أن يقول لهم الجواب الّذى لا جواب سواه بلسان كلٍّ من الحال والمقال : إنّ الله سبحانه وتعالى هو الّذى ينجّيهم من هذه الظّلمات ومن كلّ غمّ . والعجيب فى القوم أنّهم يكفرون ويشركون بعدد مرّات وعدهم بالشّكر وإفراد الله تعالى بالعبادة . ولّما كان القوم بحاجةٍ إلى أن يفهموا أنّ الإمهال ليس إهمالاً وأنّ الحِلْم ليس عجزًا فقد أمر السّياق المصطفى ﷺ أن يقول للكافرين ابتداءً ، للمؤمنين تبعًا : إنّ الله سبحانه هو القادر وحده لا شريك له على أن يبعث عليكم عذابًا من فوقكم كالصّيحة والصّواعق والصّيّب من السّماء والحجارة وذلك على غرار الحُمم الّتى تقذف بها البراكين ، أو من تحت أرجلكم كالزّلازل والخسف والغرق فى الماء ، أو يخلطكم شيعًا وأحزابًا ويذيق بعض الظّالمين البعض الآخر بأسه وشدّته . إنّ المطلوب من النّاس ، وفى مقدّمتهم كفّار مكّة قوم المصطفى ﷺ أن يفقهوا هذه المعانى ، ولكنّهم كذّبوا بالقرآن الكريم الحقّ ، فعليه ﷺ أن يستمرّ فى البلاغ : ﴿ وسيعلم الّذين ظلموا أيّ منقلبٍ ينقلبون ﴾ .

الآيـــة رقـــم (٥٩)

قال تعالى : ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلاّ هو . ويعلم ما فى البرّ والبحر . وما تسقط من ورقةٍ إلاّ يعلمها ولا حبّةٍ فى ظلمات الأرض ولا رطبٍ ولا يابسٍ إلاّ فى كتابٍ مبين ﴾ .

فى الآية الكريمة الخمسين من هذه السّورة الكريمة أمر ربّ العزّة حبيبه المصطفى ﷺ أن يقول كما جاء فى الآية الكريمة : ﴿ قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ﴾ وحينما لا يعلم خير خلق الله تعالى كلّهم محمّد بن عبد الله ﷺ الغيب ، إلاّ ما علّمه الله تعالى منه ، يكون عدم العلم بشيٍ من الغيب ألصق بسائر عباد الله تعالى ، وذلك معناه أنّ الغيب لا يعلمه إلاّ الله تعالى وحده لا شريك له . وهذا المعنى هو الّذى تقرّره الآية الكريمة الّتى نحن بصددها وتفصّله .

وفى هذه الجزئيّة الكريمة : ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلاّ هو ﴾ نحن بصدد وسيلتين لقصر علم الغيب على الله تعالى وحده لا شريك له . الوسيلة الأولى ظرف المكان الّذى يفيد العِنْديّة فى القول : ﴿ وعنده مفاتح الغيب ﴾ والوسيلة الأخرى أسلوب القصر فى القول : ﴿ لا يعلمها إلاّ هو ﴾ ومن البيّن أنّ الوسيلة الأخرى قوّةٌ للوسيلة الأولى وتأكيدٌ لمعناها .

ومعنى القول : ﴿ وعنده مفاتح الغيب ﴾ وعند الله تعالى وحده لا شريك له مفاتح الغيب . والمفاتح جمع مِفْتح . يقال فيه : مِفْتح ومفتاح . فمن قال مِفْتح جمعه مفاتح . ومن قال مفتاح جمعه مفاتيح[1] ونستطيع أن ننظر إلى لفظ مفاتح ، فى صيغة الجمع ، من زاوية الوسيلة أو الآلة باعتبار المفتاح فى المحسوسات الوسيلة الّتى تفكّ بها الأقفال وتحلّ بها الأغلال . وفى امتلاك الوسيلة أو السّبب امتلاكٌ ضمنيّ للغاية أو الهدف . كما أنّا نستطيع أن ننظر إلى لفظ مفاتح من زاوية الغاية أو النّهاية ،

---

(١) تفسير الطّبريّ ١٣٦/٧ وانظر تفسير ابن عطيّة ٢٢١/٥ و٢٢٢ .

وبناءً على ذلك يكون القول : ﴿ وعنده مفاتح الغيب ﴾ وعنده خزائن الغيب[١] والحقيقة أنّ ما جاء فى الآية الكريمة الخمسين من فصلٍ بين الخزائن وبين الغيب وذلك فى قوله تعالى : ﴿ قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ﴾ يجعل فهم لفظ المفاتح على بابه من حيث كونه وسيلةً وآلةً هو الأَوْلى . وبناءً على ذلك يكون معنى الجزئيّة الكريمة بشقّيها : ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلاّ هو ﴾ وعند الله تعالى وحده لا شريك له مفاتح الغيب لا يعلم هذه المفاتح إلاّ هو جلّ وعلا وحده لا شريك له فكيف بالغيب ذاته . إنّ شيئًا من الغيب لا يعلمه نبيٌّ مرسلٌ ولا ملكٌ مقرّبٌ إلاّ بإذنه جلّ وعلا .

والمراد بالغيب عالَمُ الغيب الّذى يقابل عالم الشّهادة . وقد قال عزّ من قائل[٢] : ﴿ عالِمُ الغيب والشّهادة الكبير المتعال ﴾ والغيب ما غاب عن أعين الخلق وعلمهم، والشّهادة ما وقع تحت أعين الخلق وألمّ به علمهم . ويأتى على رأس عالم الغيب مفاتح الغيب الخمسة . روي البخاريّ فى صحيحه[٣] أنّ رسول الله ﷺ قال : مفاتح الغيب خمس : ﴿ إنّ الله عنده علم السّاعة وينزّل الغيث ويعلم ما فى الأرحام وما تدرى نفسٌ ماذا تَكْسِبُ غدًا وما تدرى نفسٌ بأيّ أرضٍ تموت . إنّ الله عليمٌ خبير ﴾ وهذه هي الآية الكريمة الرّابعة والثّلاثون من سورة لقمان . وفى حديث عمر أنّ جبريل حين تبدّى له فى صورة أعرابيّ فسأل عن الإيمان والإسلام والإحسان فقال له النّبيّ ﷺ فيما قال له : خمسٌ لا يعلمهنّ إلاّ الله ، ثمّ قرأ : ﴿ إنّ الله عنده علم السّاعة ﴾ الآية[٤] عن ابن عمر رضي الله عنهما أنّ رسول الله ﷺ قال : مفاتيح الغيب خمسٌ لا يعلمها إلاّ الله : لا يعلم ما فى غدٍ إلاّ الله ، ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلاّ الله ، ولا يعلم متى يأتى المطر أحدٌ إلاّ الله ، ولا تدرى نفسٌ بأيّ أرضٍ تموت ، ولا يعلم متى تقوم السّاعة إلاّ الله[٥] .

---

(١) تفسير الطّبريّ ١٣٦/٧ .
(٢) سورة الرّعد ٩ .
(٣) صحيح البخاريّ ٧١/٦ وانظر تفسير ابن كثير ١٣٧/٢ .
(٤) تفسير ابن كثير ١٣٧/٢ وصحيح البخاريّ ١٤٤/٦ .
(٥) صحيح البخاريّ ٩٩/٦ .

وحينما ننظر إلى مفاتح الغيب الخمسة الّتى نصّت عليها الآية الكريمة الأخيرة من سورة لقمان نتبيّن أنّها تبدأ بيوم القيامة : ﴿ إنّ الله عنده علم السّاعة ﴾ والمعروف أنّ قضيّة البعث بعد الموت إحدى كبار القضايا الّتى ينكرها كفّار مكّة ولهذا تعتبر هذه القضيّة المحور الّذى يدور حوله المكّيّ من القرآن الكريم الّذى نزل قبل هجرة المصطفى ﷺ إلى المدينة المنوّرة . ثمّ إنّ قضيّة البعث بعد الموت إحدى القضايا الكبار الّتى عنيت بها سورة الأنعام عنايةً كبرى . وإذا كان علم السّاعة ومتى تقوم عند الله تعالى وحده لا شريك له فإنّ ربّ العزّة بيّن لحبيبه المصطفى ﷺ بعض علاماتها . جاء فى الحديث الّذى بيّن فيه المصطفى ﷺ لجبريل عليه السّلام ، الّذى ظهر فى هيئة رجل ، معنى الإسلام والإيمان والإحسان : « قال : يا رسول الله متى السّاعة ؟ قال : ما المسئول عنها بأعلم من السّائل ، ولكن سأحدّثك عن أشراطها : إذا وَلَدتِ المرأةُ ربّتها ، وفى رواية : إذا ولدت الأَمَةُ ربّتها فذاك من أشراطها ، وإذا كان الحفاة العُراةُ رءوسَ النّاس ، فذاك من أشراطها فى خمسٍ لا يعلمهنّ إلاّ الله : ﴿ إنّ الله عنده علم السّاعة وينزّل الغيث ويعلم ما فى الأرحام ﴾ . ثمّ انصرف الرّجل فقال : رُدّوا علىَّ فأخذوا لِيَرُدُّوا فلم يروا شيئًا فقال : هذا جبريل جاء لِيُعَلِّم النّاس دينهم[1] وفى معنى ولادة الأمة ربّتها : « قال الخطابي : معناه اتّساع الإسلام واستيلاء أهله على بلاد الشّرك وسبي ذراريهم . فإذا ملك الرّجل الجارية واستولدها كان الولد منها بمنزلة ربّها لأنّه ولد سيّدها . قال النّوويّ وغيره : إنّه قول الأكثرين »[2] .

فإذا تحوّلنا إلى المفتاح الثّانى من مفاتيح الغيب الخمسة : ﴿ وينزّل الغيث ﴾ استطعنا أن نفهم أنّ تنزيل الغيث بمعنى المطر يشمل المرحلة الأخيرة هذه الّتى تنصّ عليها الآية الكريمة حينما يغيث الله تعالى عباده من بعد ما قنطوا ، وفى ذلك الخير

---

(١) صحيح البخاريّ ٦/١٤٤ .

(٢) فتح الباري ١/١٢٢ شرح الحديث رقم ٥٠ من صحيح البخاريّ .

كلّ الخير ، كما يشمل كلّ المراحل السّابقة الّتى تتمّ بها دورة الماء الكاملة منذ أن كان ماءً إلى أن عاد ماءً بإرادة الله تعالى مرّةً أخرى . والمعروف أنّ أهمّ ملامح هذه الدّورة تحوّل الماء بخارًا فتكوّن السّحب منه فتجمّع السّحب وتكاثفها فإرسال الله تعالى الرّياح لواقح للسّحب فترى الودق بمعنى المطر يخرج من أثناء السّحب بإرادة الله تعالى . وإذا كان حديثنا قد انحصر فى هذه الدّورة الكاملة للماء فإنّ ثمّة مرحلةً سابقةً لكلّ هذه المراحل ومرحلةً أخرى لاحقةً ينبغى على النّاس أن يتذكّروا كلاًّ منهما جيّدًا وأن يتصرّفوا وفق هذا التّذكّر الواعى . أمّا المرحلة السّابقة فإنّها إيجاد هذا الماء من العدم أساسًا . إنّ على النّاس أن يقدروا هذه النّعمة وأن يشكروا الله تعالى عليها . وأمّا المرحلة اللاّحقة فإنّ هذا الغيث الّذى يغيث الله تعالى به العباد ، مظهرًا من مظاهر رحمته جلّ وعلا الواسعة ، قد يكون مظهرًا من مظاهر غضب الله تعالى وسخطه حينما يكون هذا الماء نفسه وسيلة انتقامٍ من الله تعالى كأن يتحوّل طوفانًا عارمًا يكتسح كلّ شيءٍ أمامه ويدمّر كلّ شيءٍ يصادفه بأمر ربّه جلّ وعلا . وما أكثر الفيضان والطّوفان الّذى نشاهده اليوم فى الكثير من الأماكن فى هذه الكرة الأرضية . يحدث ذلك فى بعض الأجزاء فى الوقت الّذى يضرب الجفاف بعض الأجزاء الأخرى من الكرة الأرضيّة بإرادة الله تعالى . إنّ كلاًّ من الطّوفان والجفاف مظهرٌ من مظاهر غضب الله تعالى وسخطه . وإنّ الغيث الّذى يتوسّط الطّوفان والجفاف من مظاهر رحمته جلّ وعلا ورأفته بعباده . وقد قال تعالى[1] : ﴿ وهو الّذى ينزّل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الوليّ الحميد ﴾ .

وإنّما نظرنا إلى القول : ﴿ وينزّل الغيث ﴾ من هذه النّواحى الشّاملة لأنّ بعضهم حصرها فى نزول الغيث حينما تبدو طلائعه فيعلم قرب نزول المطر . وهذا النّوع من العلم هو ممّا علّم الله سبحانه وتعالى عالم الأرصاد الجوّيّة المتخصّص فى هذا

---

(١) سورة الشّورى ٢٨ .

الفنّ ، والبدويّ الّذى يتتبّع مساقط الغيث ومنابت الكلأ . وقد يصدق حدس كلٌ منهما بإرادة الله تعالى وقد يخيب . أين هذا الظّاهر من العلم أو السّطحيّ منه من علم الله تعالى المحيط موجد كلّ شيءٍ من العدم بما فى ذلك الماء . وقد قال تعالى[1]: ﴿ هو الّذى يريكم البرق خوفًا وطمعًا وينشئ السّحاب الثّقال . ويسبّح الرّعد بحمده والملائكة من خيفته ويرسل الصّواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون فى الله وهو شديد المحال ﴾ .

وكما كانت نظرتنا شاملةً بشأن القول : ﴿ وينزّل الغيث ﴾ تكون نظرتنا شاملة بشأن القول : ﴿ ويعلم ما فى الأرحام ﴾ لأنّ بعضهم قصر نظرته على ما فى الأرحام فى الجنين حينما يتخلّق ويتبيّن نوعه فى فترةٍ زمنيّةٍ متأخّرةٍ من الحمل وبالتّالى تستطيع الأجهزة الحديثة أن تبيّن نوعه قبل الولادة . إنّ هؤلاء الّذين زعموا أنّ البشر يعلمون كذلك ما فى الأرحام على النّحو الّذى بيّنّا هم من جنس أولئك الّذين زعموا أنّ البشر يعلمون كذلك نزول الغيث على غرار علماء الأرصاد الجوّيّة والرّعاة فى البوادي . إنّ هؤلاء وأولئك لو اكتفوا بالإشارة إلى هذا النّوع من العلم وشكرو الله تعالى نعمه وآلاءه الّتى تجلّت ضمنًا فى العلم الّذى علّمهم الله تعالى إيّاه لكنّا قد شددنا على أيديهم وشكرنا لهم كلّ الشّكران . ولكنّ القوم عبّروا بتلك الأقوال عن الكفران وليس عن الشّكران فزعموا أنّهم هم ايضًا يعلمون نزول الغيث وما فى الأرحام . وهل هؤلاء يعلمون بآلاتهم على وجه الدّقّة ما تحمل كلّ أنثى من إنسانٍ وحيوان وحشرات ومخلوقاتٍ تتّجه إلى الصّغر إلى الدّرجة الّتى لا تكاد تكتشف ذلك المخلوق ذاته ، فضلاً عمّا اشتمل عليه ، أدقّ الآلات الّتى اكتشفها الإنسان . وهل يصل علم الإنسان إلى معرفة نوع ما فى الرّحم قبل أن يتشكّل ومنذ اللّحظة الّتى تمّ فيها الحمل . وهل ما يوجد فى الأرحام مقصورٌ على فترة الحمل . ما مقدار ما يعلمه النّاس إلى ما يجهلونه ممّا هو فى الأرحام ، أرحام كلّ أنثى . وما

---

(١) سورة الرّعد ١٢ ، ١٣ .

هو موقف أولئك الّذين يهرفون بما لا يعرفون إذا عرفوا أنّه تمّ حديثًا اكتشافٌ خطيرٌ يعتبر من مظاهر إعجاز القرآن الكريم الّذى قرّر أنّه جلّ وعلا خلق الزّوجين الذّكر والأنثى من نطفةٍ إذا تُمْنى . أمّا هذا الاكتشاف الخطير فهو أنّ كلاًّ من رأس الحيوان المنويّ للذّكر والبويضة للأنثى يشتمل على زهاء أربعة آلاف مليون حرفٍ أو رمز من الحروف الّتى يرمز بها لعناصر أربعة يتكوّن منها بإرادة الله تعالى كلّ مخلوق . وبالتّالى فإنّ الرّحم بعد الحمل يشتمل على ثمانية آلاف مليون رمزٍ من رموز هذه الشّفرة !(١) إنّ الإنسان المنصف يجد شفاءً لغليله فى مثل قوله عزّ من قائل(٢) : ﴿ الله يعلم ما تحمل كلّ أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد . وكلّ شيءٍ عنده بمقدار . عالِمُ الغيب والشّهادة الكبيرُ المتعال ﴾(٣) والغيض ما نقص عن تسعة أشهر. والزّيادة ما زاد على التّسعة الأشهر فى حق أنثى الإنسان .

ويبدو أنّ المفتاحين الرّابع والخامس من مفاتح الغيب الخمسة فى قوله تعالى : ﴿ وما تدرى نفسٌ ماذا تكسب غدًا وما تدرى نفسٌ بأيّ أرضٍ تموت ﴾ من الوضوح للدّرجة الّتى لا يستطيع الّذين يهرفون بما لا يعرفون أن يدّعوا بشأنهما أيّ شيء . وإذا كانوا لا يعلمون ما سوف يكسبون غدًا ومستقبلاً من خيرٍ أو شرّ فإنّهم لا يعلمون كذلك فى أيّ أرضٍ يموتون . ويبدو أنّ خوفهم من الموت وحرصهم على حياة أيّ حياة وبغضهم مجرّد الذّكر للموت يجعلهم كلّ ذلك أكثر النّاس اقتناعًا بأنّهم لا يعلمون شيئًا بشأن الأرض الّتى يموتون فيها . ويلاحظ أنّ الآية الكريمة تشير إلى المكان ﴿ الأرض ﴾ وليس إلى الزّمان الّذى جاءت الإشارة إليه ضمنًا فى القول : ﴿ وما تدرى نفسٌ ماذا تكسب غدًا ﴾ وفى الإشارة إلى المكان تنبيهٌ إلى أنّ كلّ بنى آدم سوف يعودون إلى الأرض بعد الموت . وهل

---

(١) انظر هنا البحث القيّم بعنوان : ﴿ من نطفةٍ خلقه فقدّره ﴾ للأستاذ الدّكتور عبد المحسن صالح والمنشور فى مجلّة الضّياء الإماراتيّة العدد الثّالث عشر من السنّة الرّابعة ٤٨ ـ ٦٢ .

(٢) سورة الرّعد ٨ ، ٩ .

(٣) درسنا الآيتين الكريمتين فى كتابنا تأمّلاتٌ فى سورة الرّعد ٧١ ـ ٧٨ .

يستطيع إنسانٌ ألاّ يعود إلى الأرض بعد موته ؟ الجواب بطبيعة الحال معروف . الجميع سوف يعود إلى الأرض بعد موته وإن أَبى ، وقد قال تعالى[1] : ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارةً أخرى ﴾ .

وحينما يحيط ربّ العزّة علمًا بمفاتح الغيب الخمسة الّتى لا يعلمها إلاّ هو جلّ وعلا يحيط علمًا بما وراء ذلك بطريق الأَوْلى والأحرى . نقول هذا بلغتنا نحن البشر العاجزين وإلاّ فإنّ أمور الغيب كلّها سواءٌ فى علم الله تعالى ، يستوى فى ذلك مفاتح الغيب الخمسة وسواها .

وحينما ننظر إلى مفاتح الغيب الخمسة نتبيّن أنّ علم السّاعة يقف منه النّاس موقف المتلقّى لقيام السّاعة الّتى لا يعلم إلاّ الله تعالى وحده لا شريك له وقت قيامها . فإذا تحوّلنا إلى مفاتح الغيب الأربعة الباقية الّتى للإنسان علاقةٌ مباشرةٌ بها فى هذه الحياة الدّنيا تبيّنا أنّ نزول الغيث مرتبطٌ بالسّماء ابتداءً ، بالأرض انتهاءً ، وتبيّنا كذلك أنّ مفاتح الغيب الثّلاثة الأخيرة متعلّقةٌ بالإنسان المشدود إلى هذه الأرض . إنّه فى رحم والدته الّتى تتحرّك على الأرض ، وإنّه يكسب رزقه على هذه الأرض وإن حلّق إلى حينٍ فى طبقات الجوّ العليا ، وإنّه يموت على هذه الأرض وفيها يعود بإرادة الله تعالى . وإنّه بالنّظر إلى هذه المفاتح الأربعة يتبيّن أنّ ماله علاقةٌ مباشرة منها بالإنسان يغلب ارتباطه بالأرض .

ونحن حينما ننظر إلى هذه الأرض الّتى ترتبط بها مفاتح الغيب الأربعة بقوّة نتبيّن أنّ الغيب ، وراء مفاتح الغيب هذه ، له القوّة ذاتها فى الارتباط بالأرض . إنّ الإنسان بطبعه مشدودٌ إلى الأرض ، وإنّ ما يقع تحت حواسّه وحده فى لحظةٍ من اللّحظات يعتبر فى حقّ غيره من البشر غيبًا . وما أقلّ نسبة ما يعلمه الإنسان بالقياس إلى ما يعلمه الآخرون ممّا يعتبر فى حقّه غيبًا لأنّه يجهله . وإنّ هذا الغيب فى حقّه وحقّهم مرتبطٌ بقوّةٍ بهذه الأرض الّتى يحيا الإنسان عليها . وبطبيعة الحال نحن

---

(١) سورة طه ٥٥ .

نتحدّث عن الإنسان من زاوية طاقته المحدودة ، ومن زاوية مقارنته بأخيه الإنسان في ضوء الحقيقة الماثلة من كون حظّ الإنسان المفرد محدودًا بشأن كلٍّ من عالم الغيب وعالم الشّهادة ، بالقياس إلى مجموع حظّ الآخرين من عالمي الغيب والشّهادة.

ومعروفٌ أنّ هذه الأرض الّتي يعيش الإنسان فوقها تتكوّن من يابسٍ وماء ، برٍّ وبحر . وإنّ ربّ العزّة الّذي يعلم وحده مفاتح الغيب يعلم كلّ ما في البرّ والبحر ، فقد أحاط الله تعالى بكلّ شيءٍ علمًا ، ولا يخفى عليه جلّ وعلا شيءٌ في الأرض ولا في السّماء . وإلى هذه المعاني أشارت الجزئيّة الكريمة الثّانية في الآية الكريمة : ﴿ ويعلم ما في البرّ والبحر ﴾ .

أما وقد عرفنا انحصار علم الإنسان في عالم الشّهادة وعرفنا أنّ ما يعتبر بالنّسبة للواحد منّا مرتبطًا بعالم الشّهادة لوقوعه داخل دائرة إدراكنا المباشر يعتبر بالنّسبة للآخرين الّذين لا يقع داخل دوائر إدراكهم مرتبطًا بعالم الغيب فإنّا نودّ أن نتحدّث عن هذا الإنسان من زاوية علمه الظّاهر أو عالم الشّهادة بالنّسبة له في ضوء قوله عزّ من قائل : ﴿ ويعلم ما في البرّ والبحر ﴾ .

هب أنّ واحدًا منّا تسنّم نَشَزًا من الأرض بحيث إن البحر المحيط يقع على أحد جانبيه في حين أنّ البرّ الفسيح يقع على الجانب الآخر منه فما الّذي يراه الإنسان ويقع تحت حدود بصره في كلٍّ من البحر والبرّ . إنّ أوّل ما نقرّره هو أنّ الإنسان لا يرى إلاّ الظّاهر بشأن كلٍّ من البحر والبرّ ، ووراء ذلك تكون في العادة نسبة ما يراه من ظاهر البرّ أكثر من نسبة ما يراه من ظاهر البحر . وتفسير ذلك أنّ الإنسان بشأن الماء لا يرى شيئًا غير الماء ، اللّهمّ إلاّ سمكةً أو ما شاكلها تقفز من هذه النّاحية أو من تلك . أمّا بشأن البرّ فإنّه في العادة يرى ، إضافةً إلى ما يقع أمامه من الفضاء ، الكثير من الأشياء والأحياء . إنّ الإنسان بشأن كلٍّ من البرّ والبحر لا يكاد يرى إلاّ الظّاهر ، وإنّ نسبة العلم بما في البرّ أكبر من نسبة العلم بما في البحر ،

وإنّ من أسباب اختلاف هذه النّسبة بين البرّ والبحر قوّة ارتباط الإنسان بالبرّ بأكثر من البحر في العادة . بل إنّ ارتباط الّذين يعملون في البحر بالأرض تكاد تكون أكثر من البحر . وما هي نسبة العمل في البحر بالقياس إلى الحياة في البرّ ، بل إنّ الّذين يعيشون فيما يشبه السّفن يحوّلون البحر برًّا بمعنى أنّهم يجعلون حياتهم في السّفينة امتدادًا لحياتهم في اليابسة . وإنّ مجموع ما يعلمه الإنسان بشأن كلّ من البرّ والبحر قليل . وقد قال تعالى[1] : ﴿ وما أوتيتم من العلم إلاّ قليلا ﴾ إنّ في تقديم الجزئيّة الكريمة لفظ البرّ على لفظ البحر تنبيهًا إلى علاقة الإنسان الأقوى بالبرّ وإلى حصيلته العلميّة الكبرى بالقياس إلى البحر ، على الرّغم من عجائب البحر الّتي قد تفوق عجائب البرّ . فما نسبة ما يعلمه الإنسان إلى ما لا يعلمه ؟ النّسبة ضئيلة . وإنّ ربّ العزّة الّذي أحاط علمًا بمفاتح الغيب الخمسة أحاط علمًا بكلّ ما في البرّ والبحر ممّا ظهر لنا وخفي علينا ، ولا ننسى أنّ هذا النّوع من العلم قد يحصل الإنسان بإذن الله تعالى على شيءٍ منه بخلاف مفاتح الغيب الخمسة . وهكذا يتأكّد علم الله تعالى المحيط وفي المقابل لا يعلم الإنسان في عالم الشّهادة إلاّ ما أذن الله تعالى له بعلمه .

وتأكيدًا لعلم الإنسان المحدود والسّطحيّ أو الظّاهر بعالم الشّهادة ذلك العلم الّذي فهمناه من تقديم الجزئيّة الكريمة لفظ البرّ على البحر تنبيهًا على علاقة الإنسان الأقوى بالبرّ تتحوّل الآية الكريمة إلى الحديث عن بعض مظاهر علم الله تعالى المرتبطة ببعض الأمور الهيّنة ظاهرًا ، من زاوية الإنسان الّذي يرتبط علمه غالبًا بظاهر الحياة الدّنيا ، الجليلة الخطر باطنًا ، من زاوية دلالة هذه الأمور الهيّنة الّتي لا يعلم الإنسان إلاّ نسبةً هيّنةً ضئيلةً منها ، من زاوية دلالة هذه الأمور الهيّنة على ما وراءها من أمور أخرى عظيمة الشّأن جليلة الخطر .

إنّ الآية الكريمة تتحدّث عن علم الله تعالى المحيط بكلّ ورقةٍ تسقط من شجرة ، وبكلّ حبّة تسقط في ظلمات الأرض ، وبكلّ رطبٍ ويابس . قال تعالى : ﴿ وما

---

(١) سورة الإسراء ٨٥ .

تسقط من ورقةٍ إلاّ يعلمها ولا حبّةٍ في ظلمات الأرض ولا رطبٍ ولا يابسٍ إلاّ في كتابٍ مبين ﴾ عطفٌ على اللّفظ[١] على ورقة[٢] والمعنى وما تسقط من ورقةٍ من شجرةٍ في أيّ مكانٍ إلاّ يعلمها الله تعالى وما تسقط من حبّةٍ في ظلمات الأرض وما يسقط من رطبٍ ولا يابس إلاّ في كتابٍ مبين « مثبت في اللّوح المحفوظ مكتوبٌ ذلك فيه ومرسومٌ عدده ومبلغه والوقت الّذي يوجد فيه والحال الّتي يفنى فيها . ويعني بقوله: مبين ، أنّه يبين عن صحّة ما هو فيه بوجود ما رسم فيه على ما رسم »[٣] .

وبشأن القول : ﴿ وما تسقط من ورقةٍ إلاّ يعلمها ﴾ نحن بصدد أسلوب القصر ، والمراد بذلك الإحاطة والشّمول . ويلاحظ أنّ التّعبير يجعل الورقة هي الّتي تسقط . والمقصود بإسناد الفعل إلى الورقة التّنبيه إلى إحاطة علم الله تعالى بكلّ ورقة ، ولماذا نقول هذا ؟ لأنّا نحن البشر حينما نتعامل مع بعض أوراق الشّجر من أجل جمعه مثلاً فإنّا نتبيّن أنّا حينما نقطف ورقةً فإنّا على علمٍ بسقوط هذه الورقة ولكن ليس لدينا أيّ علمٍ عن أيّ ورقةٍ تسقط بذاتها متى تسقط ، وهل هي خضراء أم جافّةٌ أم نَصَف . إنّ سقوط أيّ ورقةٍ بذاتها مفاجئٌ لنا وإنّ علمنا يكاد يقتصر على الورقة الّتي نقطفها بأناملنا . قارن بين علمنا المحصور فيما نقطف بأناملنا من ورق وبين علم الله تعالى بما يسقط بذاته من ورقٍ . إنّ في علم الله تعالى بكلّ ورقةٍ تسقط بذاتها تنبيهًا على كلّ ورقةٍ تسقط بفعل فاعل . ولا ننسى أنّ حرف الجرّ من في القول : ﴿ من ورقة ﴾ لاستغراق جنس الورقة[٤] بحيث إنّا نستطيع أن نفهم أنّ هذا الاستغراق يشمل كذلك الورقة النّاقصة غير الكاملة ، أي بعض الورقة .

وكي يقف المرء على بعض معنى قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿ وما تسقط من ورقةٍ إلا يعلمها ﴾ في إمكانه أن يتأمل شجرةً مّا وأن ينظر إلى ورقها الّذي لا يعلم حقيقة عدده إلاّ الله تعالى هذا إلى اختلاف طبيعة الورقة عن الأخرى ثمّ ليراقب ورقةً واحدةً ساقطة أو أكثر من ورقة ، وليتأمّل طبيعة هذه الورقة أو تلك من حيث

---

(١) تفسير ابن عطيّة ٥/٢٢٢ .
(٢) الجلالين .
(٣) تفسير الطّبريّ ٧/١٣٧ .
(٤) البحر المحيط ٤/١٤٥ .

الخضرة أو الجفاف ، الصّحّة أو المرض ، وليتفكّر كم ورقةً يستطيع أن يحيط بها علمه من بين الأوراق السّاقطة أمامه ، ثمّ ليتدبّر علمه المحدود المقصور على بعض ما يسقط من الشّجرة الواحدة خاصّةً إذا كان الزّمن خريفًا ثمّ ليتحوّل إلى علم الله تعالى المحيط بكلّ ورقةٍ ساقطةٍ بذاتها فضلاً عن الورقة السّاقطة بفعل فاعل ، وليتفكّر فى العدد غير المحدود لورق الشّجرة الواحدة ، ثمّ ليتفكّر فيما قد تقع عليه عيناه من شجر ، وما قد وقعت عليه عيناه من ذى قبل ، ثمّ إلى أعداد الشّجر فى هذه الأرض الطّويلة العريضة من النّوع الواحد ومن الأنواع الكُثْر الّتى لا يحيط بها علمًا إلاّ خالقها ، وما غاب من الوجود من شجر منذ أن قدّر الله سبحانه وتعالى فى الأرض أقواتها فى يومين من بين الأيّام الأربعة الّتى احتاجتها الأرض من حيث الإيجاد من العدم فى يومين ومن حيث التّهيئة للسُّكنى فى يومين آخرين[1] وما سوف يوجد على الأرض من شجر إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها . إنّ الله سبحانه وتعالى محيطٌ علمه بكلّ ورقةٍ من أوراق كلّ شجرة فكيف بما وراء هذه الورقة . وهذا العلم محيطٌ بما تسقط من ورقةٍ فى برٍّ أو بحر ، نعم فى بحرٍ ، فى نهارٍ أو ليل ، فى سهل أو جبل ، وفى كلّ مكان .

ومتى يرى الإنسان الورقة الّتى تسقط من الشّجرة ؟ حينما يكون ثمّة نور ، ويرتبط ذلك بالنّهار غالبًا . ونتبيّن بعد ذلك أنّ السّياق قد اتّخذ من الورقة الّتى تسقط والّتى تراها العين وقد لا تحيط بها الأذن الّتى تعمل بطبعها فى كلٍّ من اللّيل والنّهار ، اتّخذ من الورقة مطيّةً للحديث عمّا يرتبط بالورقة من ناحية ، ويفوقها ثقلاً ، ويتقدّمها شكلاً ، ويتميّز عنها أثرًا من ناحيةٍ أخرى وذلك فى القول : ﴿ ولا حبّةٍ فى ظلمات الأرض ﴾ .

إنّا حينما نقارن بين سقوط ورقةٍ من شجرةٍ بالقرب منّا وسقوط حبّةٍ أو ثمرة ، فإنّ أهمّ ما يلفت النّظر ، خاصّةً إذا كان الظّلام مطبقًا ، أنّا لا نكاد نحسّ بسقوط الورقة ولا نكاد نسمع لها صوتًا بعكس الثّمرة الّتى تسقط فإنّ أهمّ ما يرتبط بها

---

(١) سورة فصّلت ٩ ، ١٠ .

الصّوت الّذى يرتبط بارتطامها بالأرض . ووراء ذلك من الجائز أن تتدحرج هذه الحبّة أو الثّمرة ، وبذلك تشترك كلٌّ من الأذن والعين فى الإحاطة علمًا بسقوط الحبّة أو الثّمرة ، إن كان ثمّة نورٌ تعمل معه العين .

والحقيقة أنّ دور الأذن فى هذه الحال أكبر من دور العين لأنّ الأذن تعمل فى كلٍّ من النّور والظّلام بعكس العين الّتى لا تعمل إلاّ فى النّور . بل إنّ الأذن فى الظّلام تكون أكثر قدرةً على العمل . ولمّا كان السّياق يريد أن يبيّن بعض مظاهر علم الله تعالى المحيط وكان الحديث عن سقوط الورقة من زاوية النّهار واللّيل وبخاصّةٍ فى حقّنا نحن البشر الّذين لا نرى إلاّ فى النّور فإنّ الحديث فى القول بعد ذلك : ﴿ ولا حبّةٍ فى ظلمات الأرض ﴾ كان من زاوية الظّلام أوّلا . وحينما يحيط الله سبحانه وتعالى علمًا بكلّ حبّةٍ أو ثمرةٍ تسقط فى ظلمات الأرض فمن باب الأولى أن يحيط علمه جلّ وعلا بكلّ حبّةٍ تسقط فى غير الظّلام . ونحن إنّما نقول ذلك من زاويتنا نحن البشر العاجزين المقهورى الإرادة وإلاّ فإنّ علم الله تعالى واحدٌ فى كلّ زمانٍ ومكان .

وانظر إلى لفظة ظلمات فى الجزئيّة الكريمة الّتى تذكّرنا بمثل قوله تعالى[١] : ﴿ أو كصيّبٍ من السّماء فيه ظلماتٌ ورعدٌ وبرق ﴾ وبقوله تعالى[٢] : ﴿ أو كظلماتٍ فى بحرٍ لجّيٍّ يغشاه موجٌ من فوقه موجٌ من فوقه سحابٌ . ظلماتٌ بعضها فوق بعضٍ إذا أخرج يده لم يكد يراها ﴾ وإنّ هذه الظّلمات فى حقّ الحبّة لتشمل حتّى ظلمات أعماق الأرض بشأن كلٍّ من الحبّ والنّوى وقد قال تعالى فى سورة الأنعام هذه الكريمة[٣] : ﴿ إنّ الله فالق الحبّ والنّوى ﴾ .

وانظر إلى لفظة الأرض تلك الّتى تمتدّ آلاف الأميال فى كلّ ناحيةٍ والّتى لا تخلو فى كلّ لحظةٍ من اللّحظات فى جزءٍ من أجزائها من ليلٍ أو نهارٍ وما بينهما . إنّ علم الله تعالى محيطٌ بكلّ حبّةٍ تسقط من شجرة فى ظلمات الأرض فكيف بما يسقط فى غير الظّلمات . ونكرّر ما سبق أن قلنا من أنّ علم الله تعالى محيط

---

(١) سورة البقرة ١٩ . (٢) سورة النّور ٤٠ . (٣) الآية ٩٥ .

ويستوى بحقّه الظّلمات والنّور وأنّ الحديث فى الآية الكريمة يجىء مراعيًا طبيعتنا نحن البشر العاجزين المقهورى الإرادة المحكومين بالحواسّ .

وهكذا يتبيّن أنّ دور العين أكبر فى القول : ﴿ وما تسقط من ورقةٍ إلاّ يعلمها ﴾ وأنّ دور الأذن أكبر فى القول : ﴿ ولا حبّةٍ فى ظلمات الأرض ﴾ .

إنّ الحديث عن الشّجرة قد أخذ من الشّجرة أوّلاً ورقتها ، وثانيًا حبّتها الّتى قد لا تكون ثمرة وقد تكون ثمرة ، فالمعروف فى اللّغة أنّ المادّة حينما تتكوّن وتتشكّل يقال عنها حبّة . ومن ألطف الأدلّة على ما نقول لفظ الحبّ جمع حبّة دليلاً على هذه المادّة الرّئيسيّة فى مجال الطّعام . فقد راعت لفظة الحبّة وجمعها هنا الحبّ طبيعة هذه الحبّة الّتى تكوّنت وتشكّلت وبذلك كان لفظ الحبّ دليلاً على تلك المادّة الواحدة الّتى نأكلها ، تمامًا كما دلّ على هذه المادّة ألفاظٌ أخر هي القمح والبرّ والحنطة وكذلك الفوم فى بعض الأقوال . ويلاحظ بشأن لفظة حبّ أنّها أساسًا تدلّ على مجرّد تكوّن أيّ حبّة واتّخاذها شكلاً معيّنًا سواءً أكانت صالحةً للأكل أم غير صالحة ، ناضجةً أم غير ناضجة ، وبمرور الوقت استخدمت لفظة الحبّة وكذلك الحبّ استخدامًا خاصًّا واستعملت فى مجال الاصطلاح دليلاً على هذه المادّة الّتى تعتبر عماد غذاء الإنسان(١) .

وقد أخذ الحديث بعد ذلك من الشّجرة ثمرتها وذلك فى القول : ﴿ ولا رطبٍ ولا يابس ﴾ وهكذا يتبيّن التّدرّج اللّطيف فى التّحوّل شكلاً ومضمونًا ومعنًى من حالٍ إلى حال .

إنّ ثمّة تحوّلاً فى الشّكل من الورقة إلى الحبّة إلى الثّمرة .

وإنّ ثمّة تحوّلاً فى المضمون من الورقة الّتى تظهر أوّلاً ، إلى الحبّة الّتى تظهر بعد ذلك ، إلى الثّمرة الّتى تظهر أخيرًا . وهكذا يكون الزّمن مراعًى فى ترتيب الورقة والحبّة والثّمرة . علمًا بأنّ الرّطب يسبق اليابس .

---

(١) درسنا هذه الظّاهرة بإسهاب فى كتابنا تأمّلاتٌ فى سورة مريم تحت عنوان : ظاهرة التّلاؤم الصّوتيّ لسورة مريم ص ١٥٣ فما بعدها .

وإنّ ثمّة تحوّلاً في المعنى من حالٍ إلى حالٍ أكثر بعدًا وأبعد عمقا . إنّ دور العين كبيرٌ في القول : ﴿ وما تسقط من ورقةٍ إلاّ يعلمها ﴾ وإنّ دور الأذن كبيرٌ في القول : ﴿ ولا حبّةٍ في ظلمات الأرض ﴾ والمعروف أنّ الأذن تتقدّم في العادة العين في مجال تحصيل العلم بدليل تقديم القرآن الكريم السّمع على البصر دائمًا إلاّ إذا كانت طبيعة ذلك النّوع من العلم تقتضي تقديم البصر على السّمع العين على الأذن وهذا قليلٌ في القرآن الكريم . وإنّ دور العقل كبيرٌ في القول : ﴿ ولا رطبٍ ولا يابس ﴾ إنّ الرّطب واليابس يشمل الورقة والحبّة والثّمرة . وإنّ الرّطب واليابس يتقدّم ، في مجال الانتفاع والاستعمال ، الحبّة ، وإنّ الحبّة تتقدّم الورقة .

ما أشمل إحاطة العليم الخبير بكلّ رطبٍ ويابس . وإذا كان الشّجر محور هذه الجزئيّة الكريمة فهل يخرج شيءٌ في هذا الكون عن كونه رطبًا أو يابسًا بإرادة العزيز الحكيم . إنّ الإشارة إلى علم الله تعالى المحيط قد جاءت في ذكر الكتاب المبين ، بمعنى اللّوح المحفوظ[١] أو علم الله عزّ وجلّ المحيط بكلّ شيء[٢] .

وهكذا تبدأ الآية الكريمة بمعقولٍ في القول : ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلاّ هو ﴾ . وتنتهي بمعقولٍ من نوعٍ آخر : ﴿ إلاّ في كتابٍ مبين ﴾ مرورًا بثلاثة أنواعٍ متدرّجةٍ من المحسوسات يُفْضي آخرها الرّطب واليابس إلى المعقول القريب منه وغير البعيد عنه ، بسبب الحظّ الموفور للرّطب واليابس من المعقول لشموله الورقة والحبّة والثّمرة جميعًا . وهكذا يتبيّن بعض مظاهر إعجاز هذا الكتاب العزيز الّذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيمٍ حميد . قال تعالى : ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلاّ هو . ويعلم ما في البرّ والبحر . وما تسقط من ورقةٍ إلاّ يعلمها ولا حبّةٍ في ظلمات الأرض ولا رطبٍ ولا يابسٍ إلاّ في كتابٍ مبين ﴾ .

وإذا كانت الآية الكريمة تتحدّث عن علم الله تعالى المحيط فإنّ الآية الكريمة التّالية تتحدّث عن العلم والقدرة معًا فإلى .

---

(١) تفسير الطّبريّ ٧ / ١٣٧ .

(٢) تفسير ابن عطيّة ٥ / ٢٢٣ .

الآيـــة رقـــم (٦٠)

قال تعالى : ﴿ وهو الّذي يتوفّاكم باللّيل ويعلم ما جرحتم بالنّهار ثمّ يبعثكم فيه لِيُقْضَى أجلٌ مسمًّى ثمّ إليه مرجعكم ثمّ ينبّئكم بما كنتم تعملون ﴾ .

تتحدّث الآية الكريمة فى المعاني الّتى تتحدّث فيها هذه الآيـة الكريمـة مـن سـورة الزّمر[١] قال تعالى : ﴿ الله يتوفّـى الأنفس حين موتهـا والّتـى لم تمـت فـى منامهـا فيمسك الّتى قضى عليها الموت ويُرْسـل الأخـرى إلى أجـلٍ مسمًّى . إنّ فـى ذلـك لآياتٍ لقومٍ يتفكّرون ﴾ .

ونودّ أن نقف ابتداءً عند كلٍّ من جملة : ﴿ يتوفّاكم ﴾ و﴿ جرحتم ﴾ لدورهمـا البارز فى تبيين المعنى المرتبط بكلٍ من اللّيل والنّهار على التّوالى . ومعنـى : ﴿ وهـو الّذي يتوفّاكم ﴾ والله هو الّذى يتوفّى أرواحكم باللّيل فيقبضهـا مـن أجسـادكم[٢] ومعنى التّوفّى فى كلام العرب استيفاء العدد[٣] يقال : توفّيت الشّيء واستوفيته إذا أخذته كلّه حتّى لم تترك منه شيئًا . ومنه يقال للميّت : توفّاه الله[٤] وتَوْفيـة الشّـيء بذله وافيًا . واستيفاؤه تناوله وافيًا . وقد عُبِّر عن الموت والنّوم بالتّوفّى[٥] وبناءً على ذلك يكون معنى القول : ﴿ وهو الّـذى يتوفّـاكم بـاللّيل ﴾ والله تعـالى هـو الّـذى يميتكم باللّيل الميتة الصّغرى بالنّوم . وبذلك نكون بصدد نوعين من الموت أو الوفاة. الوفـاة الصّغـرى بـالنّوم والوفـاة الكـبرى بـالموت . إنّ فـى كـلٍّ مـن الوفـاتين قبضًـا لأرواحنا بإرادة الله تعالى أو لأنفسنا . وفى حال الموت يمسك الله تعالى النّفس الّتى قبضها إليه وقضي عليها الموت ، وفى حال النّوم يرسل الله تعالى النّفس مرّةً أخـرى إلى أجلٍ مسمًّى هو الموت الحقيقيّ أو الوفاة الكبرى . وهذه المعاني هي الّتـى بيّنتهـا

---

(١) الآية ٤٢ .
(٢،٣) تفسير الطّبريّ ٧ / ١٣٧ .
(٤) معجم مقاييس اللّغة لابن فارس : « وفى » ٦ / ١٢٩ .
(٥) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « وفى » ٥٢٨ ، ٥٢٩ .

آية سورة الزّمر الثّانية والأربعون السّابقة . قال تعالى : ﴿ الله يتوفّى الأنفس حين موتها والّتى لم تمت فى منامها فيمسك الّتى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجلٍ مسمّى . إنّ فى ذلك لآياتٍ لقومٍ يتفكّرون ﴾ .

ومعنى القول : ﴿ ويعلم ما جرحتم بالنّهار ﴾ ويعلم ما عملتم بالنّهار وكسبتم فيه من معاشٍ وحسنات واكتسبتم فيه من معاصٍ وسيّئات . وفى أثناء دراستنا المتأمّلة لسورة المائدة وقفنا مليًّا عند لفظة الجوارح فى الآية الكريمة الرّابعة . قال تعالى[1] : ﴿ يسألونك ماذا أُحِلّ لهم قل أُحِلّ لكم الطّيّباتُ وما علّمتم من الجوارح مكلّبين تعلّمونهنّ ممّا علّمكم الله فكلوا ممّا أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه واتّقوا الله . إنّ الله سريع الحساب ﴾ والمعنى يسألك أصحابك أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم ماذا أحلّ الله تعالى لهم . قل أحلّ الله تعالى لكم الطّيّبات من الأطعمة والحلال من الذّبائح وأحلّ لكم صيد ما علّمتم من الجوارح والكواسب لكم من سباع البهائم كالكلاب والفهود ، والطّير كالصّقور والبزاة ، مكلّبين ومرسلين وسيلة الصّيد على الصّيد ، ومعلّمين هذه الوسيلة من سباع البهائم والطّير .

وبشأن لفظة الجوارح تبيّن أنّ لها معنيين اثنين . الجرح بمعنى الكسب فى حقّ الصّائد الّذى يرسل وسيلته ، والجرح بمعنى إسالة الدّم فى حقّ وسيلة الصّيد من سباع البهائم والطّير لأنّها فى سبيل الكسب لأصحابها تجرح وتسيل الدّم وتشقّ الجلد .

وقد تبيّن أنّ ثمّة أربعة مواضع فى القرآن الكريم جاء فيها استعمال مشتقّات مادّة: « جرح » ومع أنّ معنى هذه المادّة أساسًا الجرح بمعنى شقّ الجلد وإسالة الدّم إضافةً إلى الكسب تبعًا لذلك فإنّ حظّ المواضع الأربعة متفاوت فى إفادة الجرح بمعنى إسالة الدّم وشقّ الجلد . وبقدر إفادة إسالة الدّم يتأخّر إفادة الكسب والعمل ، وبقدر إفادة الكسب والعمل يتأخّر إفادة إسالة الدّم . وإليك هذه المواضع الأربعة

---

(١) سورة المائدة ٤ .

مرتّبةً بناءً على حظّها من إسالة الدّم وشقّ الجلد باعتبار هذا المعنى هو الّذى يفيده الأصل اللّغويّ ابتداءً .

جاء فى سورة المائدة[١] قوله تعالى : ﴿ وكتبنا عليهم فيها أنّ النّفس بالنّفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسّنّ بالسّنّ والجروح قصاص . فمن تصدّق به فهو كفّارةٌ له . ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظّالمون ﴾ .

وجاء فى سورة المائدة كذلك[٢] قوله تعالى : ﴿ يسألونك ماذا أُحِلَّ لهم قل أُحِلّ لكم الطّيّبات وما علّمتم من الجوارح مكلّبين تعلّمونهنّ ممّا علّمكم الله فكلوا ممّا أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه واتّقوا الله إنّ الله سريع الحساب ﴾ .

وجاء فى سورة الجاثية[٣] قوله تعالى : ﴿ أم حسب الّذين اجترحوا السّيّئات أن نجعلهم كالّذين آمنوا وعملوا الصّالحات سواءً محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ﴾ وفى مثل هذا المعنى جاء قوله تعالى فى سورة العنكبوت[٤] : ﴿ أم حسب الّذين يعملون السّيّئات أن يسبقونا . ساء ما يحكمون ﴾ .

وجاء فى سورة الأنعام الآية الكريمة الّتى نحن بصددها قوله تعالى : ﴿ وهو الّذى يتوفّاكم باللّيل ويعلم ما جرحتم بالنّهار ثمّ يبعثكم فيه ليقضى أجلٌ مسمًّى ثمّ إليه مرجعكم ثمّ ينبّئكم بما كنتم تعملون ﴾ ونستطيع أن نجد قريبًا من هذا المعنى فى قوله تعالى من سورة الرّعد[٥] : ﴿ سواءٌ منكم من اسرّ القول ومن جهر به ومن هو مستخفٍ باللّيل وساربٌ بالنّهار ﴾ .

ومن البيّن علاقة اللّيل بالسّرّ والخفاء والسّكون ، وعلاقة النّهار بالعلن والجهر والحركة .

وبشأن جملة جرحتم فى القول : ﴿ ويعلم ما جرحتم بالنّهار ﴾ المعنى ويعلم ما عملتم وكسبتم فى النّهار من خيرٍ أو شرّ . وحينما يكون الخير محضًا يكون جملة جرحتم بمعنى عملتم وكسبتم من خير . وبقدر اقتراب العمل من كونه شرًّا يكون

---

(١) الآية ٤٥ . (٢) الآية ٤ . (٣) الآية ٢١ . (٤) الآية ٤ . (٥) الآية ١٠ .

اقتراب جملة جرح من المعنى الأوّليّ وهو شقّ الجلد وإسالة الدّم بحيث إنّ من الأعمال الشّرّيرة ما ينتهى الأمر بصاحبها إلى إسالة الدّم فعلاً . وحتّى حينما لا يقترن بالأعمال الشّرّيرة عمليّة إسالة الدّم حسًّا تكون هنالك عمليّة إسالة الدّم معنًى.

وبهذا يتبيّن أنّ القول : ﴿ وهو الّذى يتوفّاكم باللّيل ويعلم ما جرحتم بالنّهار ﴾ يتحدّث عن اللّيل من زاوية فرط سلبيّته ، فقد جعله الله تعالى سكنًا ولباسًا ، وقد عبّر عن هذه السّلبيّة المفرطة بفرط نوم النّائمين الّذين عبّر عن منامهم بوفاتهم وكأنّهم موتى سكّان القبور ، لاشتراك النّائم والمتوفّى فى العديد من الصّفات منها عدم الحركة وعدم الإحساس بالزّمان والمكان وعدم المؤاخذة على العمل . والمعروف أنّ الآخرة دار الجزاء ولا عمل ، وأنّ الأولى دار العمل ولا جزاء .

كما يتحدّث هذا القول عن النّهار من زاوية فرط إيجابيّته ، فقد عبّر عن العمل فيه من زاوية حدّه النّهائيّ فى الإيجابيّة الشّرّيرة حينما ينتهى الأمر بعمل الشّرّير إلى إسالة دم المعتدى عليه . وحينما يعبّر عن السّلبيّة ليلاً فى القول : ﴿ وهو الّذى يتوفّاكم باللّيل ﴾ يدخل فى ذلك بطبيعة الحال سائر الأعمال الّتى تقلّ سلبيّة وتتّسم بالإيجابيّة . وحينما يعبّر عن الإيجابيّة نهارًا فى القول : ﴿ ويعلم ما جرحتم بالنّهار﴾ يدخل فى ذلك بطبيعة الحال سائر الأعمال الّتى تقلّ إيجابيّةً وتتّسم بالسّلبيّة .

وإنّما كان الحديث عن اللّيل من زاوية السّلبيّة الّتى قد تكون وفاةً أو كالوفاة ، وكان الحديث عن النّهار من زاوية الإيجابيّة الّتى قد تكون جريمةً وإسالة دم وشقّ جلد ، من زاوية الأمر الغالب على كلٍّ من اللّيل والنّهار .

إنّ الله سبحانه وتعالى قد شاء للّيل أن يكون سكنًا ولباسًا غالبًا ، ولا ينفى ذلك أن يكون اللّيل حركةً ومعاشًا لأفرادٍ معدودين ، كما شاء الله سبحانه وتعالى للنّهار أن يكون حركةً ومعاشًا غالبًا ، ولا ينفى ذلك أن يكون النّهار سكنًا ولباسًا لأفرادٍ

معدودين . إنّ ثمّة قاعدةً واستثناءً . وإلى هذه القاعدة أشار مثل قوله تعالى[١] : ﴿ وجعلنا اللّيل لباسًا . وجعلنا النّهار معاشا ﴾ وقوله تعالى[٢] : ﴿ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم اللّيل سرمدًا إلى يوم القيامة من إلـٰهٌ غير الله يأتيكم بضياء . أفلا تسمعون . قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النّهار سرمدًا إلى يوم القيامة من إلـٰهٌ غير الله يأتيكم بليلٍ تسكنون فيه أفلا تبصرون . ومن رحمته جعل لكم اللّيل والنّهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلّكم تشكرون ﴾ .

وبسبب سلبيّة اللّيل المفرطة الّتى عبّر عنها بوفاة النّائمين أفاد القول : ﴿ وهو الّذى يتوفّاكم باللّيل ﴾ القدرة المطلقة للفعّال لما يريد والّذى إذا أراد شيئًا فإنّما يقول له كن فيكون . وبسبب إيجابيّة النّهار المفرطة الّتى عبّر عنها بالجرح وإسالة الدّم وشقّ الجلد أفاد القول : ﴿ ويعلم ما جرحتم بالنّهار ﴾ العلم المطلق للعليم الخبير الّذى لا يخفى عليه شيءٌ فى الأرض ولا فى السّماء . إنّ سلبيّة اللّيل الّتى انعكست على الإنسان وكأنّه متوفًّى فيه ، أظهرت القدرة مطلقةً للفعّال لما يريد ، وإنّ إيجابيّة النّهار الّتى انعكست على الإنسان إلى حدّ الإجرام فيه ، أظهرت العلم مطلقًا للعليم الخبير . وقد أعان الطّباق بين اللّيل بظلمته ، والنّهار بنوره ، على الإظهار لكلٍّ من القدرة المطلقة والعلم المطلق . وقد هيّأ كلّ ذلك للقول بعد ذلك : ﴿ ثمّ يبعثكم فيه ﴾ الّذى يشمل كلاًّ من اللّيل والنّهار ، ويتضمّن كلاًّ من القدرة والعلم .

إنّا حينما نتأمّل قوله عزّ من قائل فى سورة الجاثية[٣] : ﴿ زعم الّذين كفروا ألّن يبعثوا قل بلى وربّي لتُبْعَثُنّ ثمّ لتُنبَّؤُنَّ بما عملتم . وذلك على الله يسير ﴾ نتبيّن أنّ البعث معناه فى الأساس الانبعاث من القبور يوم القيامة والخروج من الأجداث لأجل الحساب فالثّواب أو العقاب . وإنّما يكون البعث من القبور يوم القيامة بعد مكث النّاس فى القبور ما شاء الله سبحانه وتعالى لهم أن يمكثوا . وبقدر السّكون

---

(١) سورة النّبأ ١٠ ، ١١ . (٢) سورة القصص ٧١ - ٧٣ . (٣) الآية ٧ .

فى القبر الّذى عبّر عنه بالوفاة يكون الانبعاث من القبر والحركة والضّوضاء وكأنّ النّاس جرادٌ منتشر . وإنّ هذه الصّفات المتقابلة المرتبطة بكلٍّ من الوفاة فى القبر ، والبعث يوم القيامة ، يتّسم بها كلٌّ من اللّيل والنّهار فى القول : ﴿ وهو الّذى يتوفّاكم باللّيل ويعلم ما جرحتم بالنّهار ثمّ يبعثكم فيه ﴾ والمعنى أنّ بعد السّكون ليلاً فكأنّه وفاة يكون البعث نهارًا فكأنّه البعث يوم القيامة بعد الوفاة فى القبور . وبهذا يكون اسم الضّمير فى القول : ﴿ فيه ﴾ يعود إلى النّهار .

ولمّا كان البعث فى النّهار فى هذه الحياة الأولى من أجل أن يبلونا الله تعالى أيّنا أحسن عملاً وليس كالبعث فى الحياة الأخرى من أجل الحساب فالجزاء جاء بعد ذلك القول : ﴿ لِيُقْضَى أجلٌ مسمّى ﴾ والمراد أنّ الاستيقاظ نهارًا بعد النّوم ليلاً من أجل أن يقضي الواحد منّا أجله المسمّى بالموت ، ويستنفد الوقت الّذى قدّره الله تعالى له وقضى أن يبقى فيه حيًّا إلى أن ينتهي بالوفاة واللّحوق بالرّفيق الأعلى . وهذا القول يذكّرنا بالآية الكريمة الثّانية من سورة الأنعام . قال تعالى : ﴿ هو الّذى خلقكم من طين ثمّ قضى أجلاً وأجلٌ مسمًّى عنده ثمّ أنتم تمترون ﴾ ومعنى : ﴿ ثمّ قضى أجلاً ﴾ ثمّ قضى لكم أيّها النّاس أجلاً وذلك ما بين أن يخلق إلى أن يموت(١) ومعنى: ﴿ وأجلٌ مسمًّى عنده ﴾ وأجلٌ مسمّى عنده جلّ وعلا لا يعلمه إلاّ هو(٢) وذلك ما بين أن يموت إلى أن يبعث(٣) .

وإذا كان القول : ﴿ ليقضى أجلٌ مسمّى ﴾ يتمشّى مع القول فى الآية الكريمة الثّانية : ﴿ ثمّ قضى أجلاً ﴾ فإنّ القول بعد ذلك : ﴿ ثمّ إليه مرجعكم ثمّ ينبّئكم بما كنتم تعملون ﴾ يتمشّى مع القول فى الآية الكريمة الثّانية : ﴿ وأجلٌ مسمًّى عنده ثمّ أنتم تمترون ﴾ .

ويلاحظ مجيء حرف العطف ﴿ ثمّ ﴾ الّذى يدلّ على التّرتيب مع التّراخى ثلاث مرّات . والمعروف أنّ حرف العطف ﴿ ثمّ ﴾ يجيء فى سورة الأنعام بدرجةٍ كبيرة

---

(١) تفسير الطّبريّ ٩٤/٧ .
(٢) تفسير ابن كثير ١٢٣/٢ .
(٣) تفسير الطّبريّ ٩٤/٧ .

جدّا . ويلاحظ أنّ حرف العطف : ﴿ ثمّ ﴾ يجيء مرّةً واحدة فى القول : ﴿ ثمّ يبعثكم فيه ليقضى أجلٌ مسمّى ﴾ لأنّنا بصدد سببٍ وهو البعث بعد النّوم ، وغاية وهو قضاء الأجل .

وإنّ التّرتيب مع التّراخى الّذى يفهم من حرف العطف ﴿ ثمّ ﴾ يراد منه تنبيه النّاس إلى وجوب الاستفادة من هذا الإمهال فحذار أن يفهموه إهمالاً . إنّ عليهم أن يفهموا بأنّ بعد الحياة موتًا لا محالة ، وبعد الموت بعثًا ، وبعد البعث حسابًا فجزاءً . ثوابًا إن كانت الأعمال صالحة ، عقابًا إن كانت الأعمال سيئةً والعياذ بالله. إنّ كلّ إنسانٍ سوف ينبّئه الله تعالى بما كان يعمل فى الحياة الأولى من خيرٍ أو شرّ وقد قال تعالى[1] : ﴿ وكلّ إنسانٍ ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابًا يلقاه منشورا . اقرأ كتابك كفى بنفسك اليومَ عليك حسيبا ﴾ قال تعالى : ﴿ وهو الّذى يتوفّاكم باللّيل ويعلم ما جرحتم بالنّهار ثمّ يبعثكم فيه ليُقْضَى أجلٌ مسمّى ثمّ إليه مرجعكم ثمّ ينبّئكم بما كنتم تعملون ﴾ .

والآيتان الكريمتان التّاليتان تتحدّثان فى كلٍّ من القدرة والعلم وهاتان هما :

الآيتان رقم (٦١ ، ٦٢)

قال تعالى : ﴿ وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة . حتّى إذا جاء أحدّكم الموتُ توفّته رسلنا وهم لا يفرّطون . ثمّ ردّوا إلى الله مولاهم الحقّ . ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين ﴾ .

وجه الشّبه واضحٌ بين صدر الآية الكريمة الأولى وبين صدر الآية الكريمة الثّامنة عشرة من السّورة الكريمة . قال تعالى ﴿ وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير ﴾ وبشأن الآية الكريمة الّتى نحن بصددها اقترن بالقهر فوق العباد واستعلاء الله

---

(١) سورة الإسراء ١٣ ، ١٤ .

تعالى على الخلق بالقدرة ، وبالعلم اقترن إرسال الله تعالى الملائكة الحفظة على العباد . والمعروف أنّ حرف الجرّ على يدلّ على الاستعلاء . وهكذا يبدو الانسجام واضحًا بين القهر فوق العباد من زاوية القدرة والقوّة ، وبين إرسال الملائكة الحافظين الكرام البررة الكاتبين على العباد من زاوية القدرة والعلم معًا . قال تعالى : ﴿ وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة ﴾ والعلاقة متينة بين هذه الآية الكريمة وبين الآية الكريمة من سورة الرّعد[١] : ﴿ له معقّباتٌ من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله . إنّ الله لا يغيّر ما بقومٍ حتّى يغيّروا ما بأنفسهم . وإذا أراد الله بقومٍ سوءًا فلا مردّ له وما لهم من دونه من وال﴾ والمعنى أنّ لله تعالى ملائكةً تتعقّب الإنسان من بين يديه وأمامه ، ومن خلفه ووراءه ، يحفظونه بأمر الله تعالى . وإذا كانت آية الرّعد الكريمة قد تحدّثت عن الملائكة الحافظين فإنّ آيتي سورة ق الكريمة قد تحدّثت عن الملائكة الكاتبين . قال تعالى[٢] : ﴿ إذ يتلقّى المتلقّيان عن اليمين وعن الشّمال قعيد . ما يَلْفِظُ مِنْ قولٍ إلاّ لديه رقيبٌ عتيد ﴾ يقول ابن كثير[٣] : « أي للعبد ملائكةٌ يتعاقبون عليه ، حرسٌ باللّيل وحرسٌ بالنّهار يحفظونه من الأسواء والحادثات . كما يتعاقب ملائكةٌ آخرون لحفظ الأعمال من خيرٍ أو شرّ . ملائكة باللّيل وملائكة بالنّهار . فاثنان عن اليمين والشّمال يكتبان الأعمال ، صاحب اليمين يكتب الحسنات ، وصاحب الشّمال يكتب السّيّئات . وملكان آخران يحفظانه ويحرسانه ، واحدٌ من ورائه وآخر من قدّامه ، فهو بين أربعة أملاكٍ بالنّهار وأربعةٍ آخرين باللّيل بدلا ، حافظان وكاتبان ، كما جاء في الصّحيح: يتعاقبون فيكم ملائكةٌ باللّيل وملائكةٌ بالنّهار ، ويجتمعون في صلاة الصّبح وصلاة العصر . فيصعد إليه الّذين باتوا فيكم فيسألهم ، وهو أعلم بكم : كيف تركتم عبادي ؟ فيقولون : أتيناهم وهم يصلّون ، وتركناهم وهم يصلّون » ، « عن ابن عبّاس : يحفظونه من أمر الله ، قال : ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن

---

(١) الآية ١١ . (٢) سورة ق ١٧ ، ١٨ . (٣) تفسير ابن كثير ٢/٥٠٣ .

خلفه . فإذا جاء قدر الله خلّوا عنه . وقال مجاهد : ما من عبدٍ إلاّ له ملك موكل يحفظه فى نومه ويقظته من الجنّ والإنس والهوام . فما منها شيءٌ يأتيه يريده إلاّ قال له الملك : وراءك ، إلاّ شيءٌ أذن الله فيه فيصيبه » .

ما أروع الانسجام بين الاستعلاء بالقهر وبين الاستعلاء فى الوقت ذاته بالحفظ .

وبشأن قدر الله تعالى إذا جاء بالموت يجىء فى الآية الكريمة القول : ﴿ حتّى إذا جاء أحدَكم الموتُ توفّته رسلنا وهم لا يفرّطون ﴾ ويلاحظ مجىء جملة : ﴿ جاء ﴾ الّتى تستعمل فى القرآن الكريم دليلاً على القرب والوصول الفعليّ والمراد مجىء أسباب الموت ، كما يلاحظ تقديم المفعول به : ﴿ أحدكم ﴾ على الفاعل الّذى جاء متأخّرا : ﴿ الموت ﴾ دليلاً على كون من حضرته أسباب الموت هدفًا للموت سيدركه مهما يفرّ منه ولو كان فى برجٍ مشيد . ومعنى: ﴿ توفّته رسلنا ﴾ استوفت روحه وهم ملك الموت وأعوانه[١] وقد عرفنا أنّ توفية الشّىء بذله وافيا ، وأنّ استيفاءه تناوله وافيا[٢] قال ابن عبّاس وغير واحد : لملك الموت أعوانٌ من الملائكة يخرجون الرّوح من الجسد فيقبضها ملك الموت إذا انتهت إلى الحُلقوم[٣] وهؤلاء الملائكة الموكلون بقبض الرّوح لا يفرّطون فى حفظ روح المتوفّى بل يحفظونها وينزلونها حيث شاء الله عزّ وجلّ . إن كان من الأبرار ففى علّيّين ، وإن كان من الفجّار ففى سجّين ، عياذًا بالله من ذلك[٤] ومعنى لا يفرّطون لا يضيّعون[٥] ولا يقصّرون[٦] .

ولمّا كان بعد الموت البعث فالحساب فالجزاء ، الثّواب أو العقاب ، فقد بيّنت الآية الكريمة التّالية هذه المعاني . قال تعالى : ﴿ ثمّ ردّوا إلى الله مولاهم الحقّ . ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين ﴾ ولا زلنا بصدد حرف العطف ﴿ ثمّ ﴾ الّذى يدلّ

---

(١) الكشّاف ١ / ٥٠٩ .
(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « وفى » ٥٢٨ .
(٣) تفسير ابن كثير ١٣٨/٢ .
(٤) تفسير ابن كثير ١٣٨/٢ .
(٥) تفسير الطّبريّ ١٣٩/٧ .
(٦) تفسير ابن عطيّة ٢٢٦/٥ والبحر المحيط ١٤٨/٤ .

على التّرتيب مع التّراخي وفي ذلك التّنبيه على مدّة البقاء في القبر . إنّ بعد الموت بعثًا فردًّا إلى الله تعالى المولى الحقّ والملك العدل . إنّ الله تعالى الّذي له وحده لا شريك له في الأولى الخلق والأمر له وحده لا شريك له في الآخرة القضاء الفصل والحكم العدل . ومع كثرة النّاس منذ أن خلق الله تعالى آدم عليه السّلام إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها فإنّ الله سبحانه وتعالى هو أسرع الحاسبين ، وهو خير الحاكمين . قال تعالى : ﴿ وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة . حتّى إذا جاء أحدكم الموتُ توفّته رسلُنا وهم لا يفرّطون . ثمّ ردّوا إلى الله مولاهم الحقّ . ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين ﴾ .

والآيتان الكريمتان التّاليتان تعمّقان معنى القدرة المطلقة وهاتان هما .

الآيتان رقم (٦٣ ، ٦٤)

قال تعالى : ﴿ قل من ينجّيكم من ظلمات البرّ والبحر تدعونه تضرّعًا وخُفْيَةً لئن أنجانا من هذه لنكوننّ من الشّاكرين . قل الله ينجّيكم منها ومن كلّ كربٍ ثمّ أنتم تشركون ﴾ .

والمعنى : قل يا محمّد لكفّار مكّة من ينجّيكم من ظلمات البرّ والبحر تدعونه جلّ وعلا وحده دون سواه تضرّعًا وخفية ، جهرًا وسرًّا ، علانيةً وخفاءً قائلين من أعماقكم والله لئن أنجانا ربّنا من هذه الظّلمات والشّدائد والمحن لنكوننّ من الشّاكرين بإفراده جلّ وعلا بالعبادة . قل يا محمّد : الله تعالى وحده لا شريك له ينجّيكم منها ومن كلّ كربٍ وغمّ ثمّ أنتم للأسف تشركون مع الله تعالى في العبادة سواه ولا تلتزمون بالنّتائج المنطقيّة الّتي تُفْضي إليها الأسباب المنطقيّة والبراهين والحجج .

ونودّ أن نقف ابتداءً عند القول : ﴿ تضرّعًا ﴾ الّذي يدلّ هنا على معنى الجهر والعلانية وذلك بسبب مجيء القول : ﴿ وخفية ﴾ الّذي يدلّ على السّرّ والخفاء .

خاصّةً وأنّ معنى جملة : ﴿ تضرّعوا ﴾ فى الآية الكريمة الثّالثة والأربعين من السّورة الكريمة بمعنى تذلّلوا واستكانوا وذلك فى قوله تعالى : ﴿ فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرّعوا ولكن قست قلوبهم وزيّن لهم الشّيطان ما كانوا يعملون ﴾ حينما ننظر إلى مادّة « ضرع » نتبيّن أنّ الضّاد والرّاء والعين أصلٌ صحيحٌ يدلّ على لينٍ فى الشّيء. من ذلك ضَرَع الرّجل ضراعةً إذا ذلّ[١] ومن الباب ضَرْع الشّاة وغيره ، سمّي بذلك لما فيه من لين[٢] وبسبب لين الضّرع من ناحية ودنوّه إلى الأرض من ناحيةٍ أخرى جاء القول : « وضَرَعَ إليهم تناول ضَرْع أمّه . وقيل منه ضَرَعَ الرّجل ضراعةً ضَعُف وذلّ فهو ضارعٌ وضَرِع . وتضرّع أظهر الضّراعة .... والمضارعة أصلها التّشارك فى الضّراعة . ثمّ جُرِّد للمشاركة . ومنه استعار النّحويّون لفظ الفعل المضارع »[٣] .

وحينما يكون من المضطرّ تضرّعٌ وتذلّلٌ واستكانة ، يكون ثمّة مجاراةٌ لِضَرْع النّاقة والشّاة وغيرهما الّذى يُعْرَف بالقرب من الأرض والدّنوّ منها ، والّذى يعرف لبنه كذلك بالنّزول فى مناسباتٍ معيّنة ، فتُسْتَعْمَلُ ، دليلاً على النّزول ، جملةٌ ذات علاقةٍ بالأصل اللّغويّ ضرع إذ يقال : « أضرعت الشّاة : نزل اللّبن فى ضَرْعها لقرب نِتاجها وذلك نحو أثمر وألبن إذا كَثُرَ ثَمْرُه ولبنه . وشاةٌ ضريعٌ عظيمة الضَّرْع »[٤] ويبدو أنّ التّضرّع بمعنى التّذلّل الّذى يفيده قوله تعالى فى الآية الكريمة الثّالثة والأربعين من سورة الأنعام : ﴿ فلولا إذ جاءهم باسنا تضرّعوا ﴾ ذو علاقةٍ بهذه المرحلة الأوّليّة الحسّيّة .

وحينما يكون ثمّة دعاءٌ نابعٌ من أعماق المتضرّع فإنّ الغالب على هذا الدّعاء أن يقترن بحرارته المرتفعة ارتفاعٌ فى النّداء . ومن هنا كان التّضرّع من ناحية المرحلة

---

(١) معجم مقاييس اللّغة : « ضرع » ٣ /٣٩٥ .
(٢) معجم مقاييس اللّغة : « ضرع » ٣ /٣٩٦ .
(٣) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « ضرع » ٢٩٥
(٤) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « ضرعد » ٢٩٥ .

الأوّليّة يفيد التّذلّل ومن ناحية المرحلة الأخيرة يفيد ارتفاع النّداء وحرارة الدّعاء .
ويبدو أنّ هذا المعنى الآخر هو المستفاد من القول فى الآية الكريمة الّتى نحن بصددها: ﴿ قل من ينجّيكم من ظلمات البرّ والبحر تدعونه تضرّعًا وخُفْية ﴾ فقد عرفنا أنّ التّضرّع هنا بمعنى الجهر والعلانية إضافةً إلى التّذلّل والاستكانة ، وأنّ الخفية بمعنى السّرّ والخفاء .

ونستطيع أن نفهم ظلمات البرّ والبحر الّتى ضلّ فيها المشركون وكادوا يهلكون فى ضوء مثل قوله تعالى[1] : ﴿ مثلهم كمثل الّذى استوقد نارًا فلمّا أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلماتٍ لا يُبْصِرون . صمٌّ بكمٌ عُمْيٌ فهم لا يرجعون . أو كصيّبٍ من السّماء فيه ظلماتٌ ورعدٌ وبرقٌ يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصّواعق حذر الموت . والله محيطٌ بالكافرين . يكاد البرق يَخْطَفُ أبصارهم كلّما أضاء لهم مشَوْا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا . ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم . إنّ الله على كلّ شيءٍ قدير ﴾ وفى ضوء مثل قوله تعالى[2] : ﴿ أو كظلماتٍ فى بحرٍ لجّيٍّ يغشاه موجٌ من فوقه موجٌ من فوقه سحاب . ظلماتٌ بعضُها فوق بعضٍ إذا أخرج يده لم يكد يراها . ومن لم يجعل الله له نورًا فما له من نور ﴾ .

إنّ الكافرين حينما يضلّون ليلاً فى هذه المهامه المخيفة برًّا ، وفى تلك اللّجج العميقة بحرًا ، ينسون ما كانوا يدعون من دون الله تعالى ، ويفردونه جلّ وعلا بالعبادة والدّعاء والضّراعة والتّذلّل ويقولون جهرًا وسرًّا ، علانيةً وخفاءً ، دليلاً على استمرار الشّدّة ، ولزوم المحنة ، وبقاء الكرب : والله لئن أنجانا ربّنا من هذه الظّلمات والشّدائد والمحن لنكوننّ من الشّاكرين له جلّ وعلا المفرديه بالعبادة وحده لا شريك له .

وكما أمرت الآية الكريمة الأولى المصطفى ﷺ أن يقول كلّ ذلك للمشركين فى هيئة سؤال ، تأمر الآية الكريمة الأخرى المصطفى ﷺ أن يقول للمشركين فى هيئة

---

(١) سورة البقرة ١٧ - ٢٠ .
(٢) سورة النّور ٤٠ .

الجواب على ذلك السّؤال : ﴿ قل الله ينجّيكم منها ومن كلّ كربٍ ثمّ أنتم تشركون ﴾ والمعنى : قل يا محمّد لأولئك المشركين الّذين يفردون الله تعالى وحده لا شريك له فى الشّدّة بالدّعاء : إنّ الله سبحانه وتعالى هو وحده الّذى ينجّيكم منها ومن كلّ كربٍ مشابه وكلّ محنةٍ مماثلة . والعجيب فيكم أيّها المشركون أنّكم بعدد إنجائكم من المحن تعودون إلى الشّرك ! ومع أنّ حرف العطف ﴿ ثمّ ﴾ فى القول : ﴿ ثمّ أنتم تشركون ﴾ على بابه من إفادة التّرتيب مع التّراخى ، بمعنى أنّ العودة إلى الشّرك حدثت بعد الإنجاء بفترةٍ تطول أو تقصر ، فإنّه وراء ذلك يفيد بُعْدًا معنويًّا يضارع البعد الزّمنيّ الّذى يفيده ﴿ ثمّ ﴾ أساسًا ، بل ربّما يزيد عنه فى إفادته البعد المعنويّ . إنّ النّتيجة المنطقيّة لإنجاء الله تعالى المتضرّعين الّذين دعوه جلّ وعلا بحرارة ، علانيةً وسرًّا ، أن يستمرّوا موحّدين مفردين الله تعالى بالعبادة منفّذين ما التزموا به شكرٍ لله تعالى بعبادته جلّ وعلا وحده لا شريك له . ولمّا كانت النّتيجة الّتى انتهى إليها المضطرّون غير منطقيّة وغير متمشّية مع إنجاء الله تعالى لهم وتذلّلهم وتضرّعهم وحرارة دعائهم جهرًا وسرًّا والوعد الّذى قطعوه على أنفسهم بالشّكران ، ولمّا كانوا قد تورّطوا مقابل الشّكران فى الكفران وفى ارتكاب الذّنب الّذى لا يغفره الله تعالى وهو الإشراك مع الله تعالى سواه فإنّ هذا البعد المعنويّ بين السّبب والمسبّب قد نبّه عليه حرف العطف ﴿ ثمّ ﴾ فى القول : ﴿ ثمّ أنتم تشركون ﴾ إضافةً إلى إفادة حرف العطف هذا ، البعد الزّمنيّ الأساسيّ بإفادة التّرتيب مع التّراخى .

وعلى الرّغم من القرب الصّوتيّ فى الآيتين الكريمتين : ﴿ لنكوننّ من الشّاكرين ﴾ ﴿ ثمّ أنتم تشركون ﴾ فإنّ البعد المعنويّ بينهما أوضح من القرب اللّفظيّ أو الصّوتيّ ، وهو بعد معنويّ قوّى من معناه شكرٌ موعودٌ به ولكن لا وفاء معه ، وشركٌ موعودٌ بهجره ولكن تمّ التّورّط فيه .

ونستطيع أن نتبيّن فحوى الآيتين فى مثل قوله تعالى من سورة يونس[1] : ﴿ هو

---

(١) الآية ٢٢ ، ٢٣ .

الّذى يسيّركم فى البرّ والبحر حتّى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريحٍ طيّبةٍ وفرحوا بها جاءتها ريحٌ عاصفٌ وجاءهم الموج من كلّ مكانٍ وظنّوا أنّهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدّين لئن أنجيتنا من هذه لنكوننّ من الشّاكرين . فلمّا أنجاهم إذا هم يبغون فى الأرض بغير الحقّ . يا أيّها النّاس إنّما بَغْيُكُمْ على أنفسكم متاعَ الحياةِ الدّنيا ثمّ إلينا مرجعكم فننبّئكم بما كنتم تعملون ﴾ وفى مثل قوله تعالى من سورة العنكبوت[1] : ﴿ فإذا ركبوا فى الفلك دَعَوُا الله مخلصين له الدّين فلمّا نجّاهم إلى البرّ إذا هم يشركون . ليكفروا بما آتيناهم وليتمتّعوا فسوف يعلمون ﴾ وفى مثل قوله تعالى من سورة الرّوم[2] : ﴿ وإذا مسّ النّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا ربّهم منيبين إليه ثمّ إذا أذاقهم منه رحمةً إذا فريقٌ منهم بربّهم يشركون . ليكفروا بما آتيناهم فتمتّعوا فسوف تعلمون ﴾ قال تعالى : ﴿ قل من ينجّيكم من ظلمات البرّ والبحر تدعونه تضرّعًا وخُفْيةً لئن أنجانا من هذه لنكوننّ من الشّاكرين . قل الله ينجّيكم منها ومن كلّ كَرْبٍ ثمّ أنتم تشركون ﴾ .

وإنّ هؤلاء الّذين حنثوا فى أيمانهم وبادلوا الإحسان بالكفران هل أمنوا عذاب الله تعالى أن يطاردهم برًّا وبحرا ، ليلاً ونهارًا ، بياتًا وهم نائمون ، ضحًى وهم يلعبون ، ظهرًا وهم قائلون : ﴿ أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكرَ الله إلاّ القوم الخاسرون ﴾[3] إلى هذه المعاني أشارت الآية الكريمة التّالية فإلى .

الآيـــة رقـــم (٦٥)

قال تعالى : ﴿ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابًا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا ويذيق بعضكم باس بعض . انظر كيف نصرّف الآيات لعلّهم يفقهون ﴾ .

---

(١) الآية ٦٥ ، ٦٦ .
(٢) الآية ٣٣ ، ٣٤ .
(٣) سورة الأعراف ٩٩ .

جاء في صحيح البخاريّ[١] عن جابر رضي الله عنه قال : لمّا نزلت هذه الآية : قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابًا من فوقكم . قال رسول الله ﷺ : أعوذ بوجهك . قال : أو من تحت أرجلكم . قال : أعوذ بوجهك . أو يلبسكم شيعًا ويذيق بعضكم بأس بعض . قال رسول الله ﷺ : هذا أهون أو هذا أيسر[٢] ويتعلّق بهذه الآية أحاديث كثيرة[٣] منها هذا الحديث الّذى رواه حذيفة بن اليمان قال : خرجت مع رسول الله ﷺ إلى حرّة بنى معاوية[٤] قال : فصلّى ثماني ركعات فأطال فيهنّ ثمّ التفت إليّ فقال : حبستك يا حذيفة . قلت : الله ورسوله أعلم . قال : إنّى سألت الله ثلاثًا فأعطاني اثنتين ومنعنى واحدة . سألته ألاّ يسلّط على أمّتى عدوًّا من غيرهم فأعطاني . وسألته ألاّ يهلكهم بغرق فأعطاني . وسألته ألاّ يجعل باسهم بينهم فمنعنى[٥] وقال النّبيّ ﷺ : إنّى لا أخاف على أمّتى إلاّ الأئمّة المضلّين . فإذا وضع السّيف فى أمّتى لم يرفع عنهم إلى يوم القيامة . ليس فى شيءٍ من الكتب السّتّة وإسناده جيّدٌ قويّ[٦] .

على غرار العديد من الآيات الكريمات فى السّورة الكريمة تبدأ الآية الكريمة بأمر المصطفى ﷺ أن يقول لكفّار مكّة ابتداءً ، جميع النّاس تبعًا : إنّ الله سبحانه وتعالى الّذى أحاط بكلّ شيءٍ علمًا والّذى لا يعجزه شيءٌ فى الأرض ولا فى السّماء ، هو القادر وحده لا شريك له على أن يبعث عليكم عذابًا من فوقكم كالرّجم والصّيحة، ومن ذلك ما تلقى به البراكين مثلاً من سموم وحُمم ، ومن ذلك الصّواعق والأعاصير والأمطار الغزيرة وما يرتبط بذلك من طوفان ، وهذه الأعاصير كما تكون برًّا تكون بحرًا وذلك فى هيئة الرّيح القاصف الّذى يكسر السّفن ويغرقها . وهو جلّ وعلا وحده لا شريك له القادر على أن يبعث عذابًا من تحت أرجلكم

---

(١) ٦/٧١ .
(٢) وانظر تخريج الحديث فى تفسير ابن كثير ٢/١٣٩ .
(٣) تفسير ابن كثير ٢/١٤٠ .
(٤) قرية من قرى الأنصار . تفسير ابن كثير ٢/١٤٠ .
(٥) تفسير ابن كثير ٢/١٤٠ وانظر الرّوايات الأخرى للحديث ص ١٤٠ و١٤١ .
(٦) تفسير ابن كثير ٢ / ١٤١ .

كالزّلازل الّتى يرتبط بهـا الخسف ، وانهيار المنازل بأصحابهـا ، وكـابتلاع الميـاه للسّفن وللنّاس وما إلى ذلك .

ويلاحظ أنّ ربّ العزّة قد استجاب دعاءه عليه الصّلاة والسّلام ألاّ يهلك الأمّة كلّها مجتمعة بإحدى الجوائح ، ولا يمنع ذلك هـلاك أفرادٍ أو جماعـاتٍ بـالزّلازل أو البراكين أو الطّوفان وما أشبه ذلك . ويلاحظ كذلك مجىء جملة ﴿ يبعث عليكم ﴾ فى القول : ﴿ قل هو القادر على أن يبعث عليكـم ﴾ وإنّ جملـة ﴿ يبعـث ﴾ الّتـى تذكّر بالبعث والاستيقاظ بعد هدوءٍ أو نوم ممّا يحقّق عنصر المفاجـأة على نحـو مـا فهمنا فى الآية الكريمة السّتّين وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وهو الّـذى يتوفـاكم بـاللّيل ويعلم ما جرحتم بالنّهار ثمّ يبعثكم فيه ﴾ إنّ جملة يبعث تشـير إلى مفاجـأة العـذاب أولئك الغافلين العابثين . وقد يكون بعث العـذاب ليـلاً وقـد يكـون نهـارًا . ثـمّ إنّ حرف الجرّ على من القول : ﴿ عليكم ﴾ يدلّ على استعلاء العـذاب . وقـد يجمـع العذاب بين الاستعلاء مكانًا حينما يأتى مـن أعلـى ومكانـة فـلا يستطيع إنسـانٌ أن يمنعه أو أن يصرفه . وقد يكون الاستعلاء مكانـة وذلـك حينمـا يجـىء العـذاب مـن تحت أرجل النّاس .

ويلاحظ مجـىء لفـظ الأرجـل فـى القـول : ﴿ أو مـن تحت أرجلكـم ﴾ وعـدم الاكتفاء بالقول : ﴿ أو من تحتكم ﴾ وفى ذكر الأرجـل تنبيـهٌ للعبـاد إلى قـدرة الله تعالى المطلقة بحيث إنّ الّذين أراد الله تعالى بهم من الأقوام سوءًا فإنّ العـذاب يصـحّ أن يأتيهم من تحت أرجلهم مباشرة وليس من تحتهم على الإطلاق . ولازلنا ننبّـه إلى دور القول : ﴿ أو من تحت أرجلكم ﴾ على عظيم قدرة الله تعالى . فالأرجل الّتـى يتمّ بها التّحرّك أو الفرار يأتى العذاب من تحتها مباشـرة . إنّ العـذاب إن كـان مـن فوق الرّءوس أو من تحت الأرجل فإنّه بقدرة الله تعالى لا يخطئ القوم . وكـما تبيّـن مجىء الأرجل تبيّن عدم مجىء الرّءوس وذلك فى القول : ﴿ قل هـو القـادر علـى أن يبعث عليكم عذابًا من فوقكم أو من تحت أرجلكم ﴾ ونحـن نتبيّـن فـى عـدم مجـىء

القول : من فوق رءوسكم ، مظهرًا من مظاهر رحمة الله تعالى الّتى وسعت كلّ شيء . إنّ مجيء القول : ﴿ من فوقكم ﴾ يعنى من فوق الرّءوس ومن فوق سواها . ولّما كان العذاب من فوق الرّءوس يعنى الهلاك غالبًا وكان العذاب من الفوق مطلقًا يعنى الهلاك ويعنى التّخويف معًا ، وكانت الصّورة الأخرى تشتمل على شيءٍ من رحمة الله تعالى الّتى وسعت كلّ شيء والّتى سبقت غضبه جلّ وعلا وعذابه ، كان فى القول : ﴿ أو من فوقكم ﴾ إشارةٌ إلى رحمة الله تعالى الواسعة هذه . وقد عرفنا أنّ ربّ العزّة قد استجاب دعاء حبيبه ﷺ ألاّ يهلك أمّته بأيٍّ من هاتين الوسيلتين .

ولم يستجب الله دعاء حبيبه ﷺ بشأن عدم تسليط هذا النّوع من العذاب الآخر على الأمّة ، هذا النّوع الّذى أشار إليه قوله تعالى : ﴿ أو يلبسكم شيعًا ويذيق بعضكم بأس بعض ﴾ والمعنى أنّ من وسائل عذاب الله تعالى هذه الأمّة ، والّذى يصحّ أن يكون من وسائل هلاكها وانتقام الله تعالى منها ، أن يلبسها شِيَعًا، ويخلطها فِرَقا ، ويمزّقها أحزابًا ، ولا يقف الأمر عند هذا الحدّ إنّما يسلّط الله تعالى بعض الظّالمين على بعض ويذيق بعض الظّالمين بأس البعض الآخر وقوّته وشدّته . وقد جاء فى هذا المعنى فى هذه السّورة الكريمة قوله تعالى[1] : ﴿ وكذلك نولّى بعض الظّالمين بعضًا بما كانوا يكسبون ﴾ .

وإنّ واقع الأمّة الإسلاميّة من اكبر الأدلّة على إعجاز القرآن الكريم فى مجال الإنباء بالغيب ، وعلى صدق المصطفى ﷺ الموحى إليه والّذى لا ينطق عن الهوى .

وتأمر الآية الكريمة المصطفى ﷺ ابتداءً ، كلّ فردٍ من أفراد الأمّة الإسلاميّة انتهاءً، أن ينظر بعين عقله ، وأن يرى بنور بصيرته ، وأن يتأمّل ويتدبّر بفكره كيف يصرّف الله سبحانه وتعالى الآيات وينوّع الدّلائل ويقلّب الحجج ويعدّد البراهين لعلّهم يفقهون هذه المعاني القصيّة ، ومع ذلك هم كالأنعام بل هم أضلّ ، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله تعالى العليّ العظيم .

---

(١) سورة الأنعام ١٢٩ .

وإنّ الآية الكريمة وإن كانت متّجهةً أساسًا إلى كفّار مكّة فإنّها متّجهةٌ وراء ذلك إلى الأمّة الإسلاميّة الّتى لا يفقه الكثير من أفرادها وجماعاتها هذه المعاني السّامية . وقد أوحت هذه الآية وأمثالها بمثل هذا القول فى حقّ أولئك الّذين بدّلوا نعمة الله تعالى كفرًا :

أليس يكون البشر إلاّ مع الكفر وإغضاب ربّ الكون فى البرّ والبحر
فليت الّذى قد بدّل الكفر بالشّكر تذوّق حلو الدّمع فى سور الفجر

* * *

أيذكر راعى الشّاء طال بناؤه قريب زمانٍ جفّ فى الجبّ ماؤه
لأجل رغيف الخبز هُدَّ خباؤه وبُدِّل أرضًا ما رأتها سماؤه

والآيتان الكريمتان الأخيرتان فى القِسْم تبيّن أولاهما إصرار الكافرين على تكذيب القرآن الكريم وهو الحقّ ، وأنّ دور المصطفى ﷺ يقف عند البلاغ وحده. وتبيّن أخراهما أنّ كلّ نبأٍ جاء فى القرآن الكريم ذكره سوف يقع ، مظهرًا من مظاهر إعجاز القرآن الكريم **فى مجال الإنباء بالغيب ، وتهدّد** الكافرين بأنّ العذاب واقعٌ بهم لا محالة إن لم يتوبوا **إلى الله تعالى توبةً نصوحًا** . وهذه إحدى الآيتين الكريمتين فإلى .

الآيــة رقــم (٦٦)

قال تعالى : ﴿ وكذّب به قومك وهو الحقّ . قل لست عليكم بوكيل ﴾ .

ومن البيّن تكوّن الآية الكريمة من شقّين اثنين . الشّقّ الأوّل فى القول : ﴿ وكذّب به قومك وهو الحقّ ﴾ والخطاب للمصطفى ﷺ الّذى أصرّ قومه عليه الصّلاة والسّلام على التّكذيب بالقرآن الكريم وهو الحقّ من ربّ العالمين ، رغم ما اشتمل عليه هذا الكتاب العزيز من إنذار . وقد تبيّن أنّ الآية الكريمة السّابقة قد

اشتملت على ما يخلع الأفئدة من إنذارٍ لقومٍ يوقنون . ولّما كان منتهى ما يستطيع أن يفعله المصطفى ﷺ لقومه المكذّبين بالقرآن الكريم هو البلاغ ، والبلاغ وحده ، وقد بلّغ المصطفى ﷺ الرّسالة وأدّى الأمانة وكان لقومه النّاصح الأمين ، فإنّ هذه المعاني عبّر عنها الشقّ الثّانى من الآية الكريمة فى القول : ﴿ قل لست عليكم بوكيل﴾ إنّ المصطفى ﷺ قد أُمِر من ذى قبل بمجموعةٍ من الأوامر منها أن يقول عليه الصّلاة والسّلام للمكذّبين إنّه عليه الصّلاة والسّلام ليس عنده خزائن الله ولا يعلم الغيب وليس ملكًا ولكنّه بشرٌ يتّبع ما أوحاه الله تعالى إليه ولا يملك للمكذّبين ما يستعجلون به من العذاب استهزاءً وليس حفيظًا عليهم ولا رقيبًا ولا وكيلا . وهذا المعنى الأخير عبّر عنه الشّقّ الثّانى فى الآية الكريمة : ﴿ قل لست عليكم بوكيل ﴾ .

وإذا كان المصطفى ﷺ ليس عليه سوى البلاغ وإنذار المكذّبين فإنّ الآية الكريمة الأخيرة فى القسم تقوم بهذا البلاغ المشوب بالإنذار وبالشّىء الكبير من التّهديد . فإلى .

الآيـــة رقـــم (٦٧)

قال تعالى : ﴿ لكلّ نبأٍ مستقرٌّ . وسوف تعلمون ﴾ .

ما أكثر ما تضمّنه القرآن الكريم فى مجال الإنباء بالغيب . وما أكثر ما تحقّق ممّا تضمّنه القرآن الكريم فى هذا المجال . والّذى لّما يتحقّق سوف يتحقّق بإذن الله تعالى. وإنّ الآية الكريمة فى شقّها الأوّل : ﴿ لكلّ نبأٍ مستقرّ ﴾ تعد وعد الحقّ ووعد الصّدق بأنّ كلّ نبأٍ جاء فى القرآن الكريم وكلّ خبرٍ فى مجال الإنباء بالغيب سوف يتحقّق وسوف يقع وسوف يكون له قرارٌ ورصيدٌ من الواقع . وفى الشّقّ الثّانى : ﴿ وسوف تعلمون ﴾ يأخذ تهديد الكافرين طابع الأسلوب المباشر

والخطاب وجهًا لوجه . إنّكم أيّها المكذّبون إن لم تتوبوا إلى بارئكم توبةً نصوحًا فإنّكم سوف تعلمون صدق هذه الأنباء مستقبلاً بعيدًا أو قريبًا ، آجلاً أو عاجلا . والمعروف أنّ كلّ ما تنبّأ به القرآن الكريم والرّسول العظيم قد تحقّق . وإنّه لم يكد يمضى قرنٌ واحدٌ من الزّمان على وفاة المصطفى ﷺ حتّى كانت راية دولة لا إله إلاّ الله محمّد رسول الله عاليةً خفاقةً على الدّولة الإسلاميّة الممتدّة دون انقطاعٍ من الصّين شرقًا إلى حدود فرنسا غربا .

[٧]

« الأمر بالإعراض عن المستهزئين ، والإنكار على الدّاعين إلى الكفر والأمر بتقوى الله تعالى »

الآيـــات (٦٨ ـ ٧٣)

وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ
ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ
ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾
وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن
ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟
دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ
أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ
وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ
ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ
أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ
مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ
كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ
يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ
وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ
وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى

خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن
فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ
عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾

امتدادًا لتسلية المصطفى ﷺ وتثبيت الفئة المؤمنة القليلة العدد آنذاك فى مكّة المكرّمة تقول أولى آيات القسم للمصطفى ﷺ ولكلّ فردٍ مؤمنٍ وراء ذلك بأنّه إذا رأى الكافرين ــ ويلحق بهم المنافقون ــ الّذين يخوضون فى آيات الله تعالى بالباطل ويتّخذونها هزوًا فإنّ عليه أن يعرض عنهم ويبدي عن عدم رضاه عمّا يأتون من منكرٍ من القول وزورٍ حتّى يخوضوا كعادتهم فى حديثٍ غيره ويُزْجوا أوقات فراغهم فى أودية القول الّتى لا فائدة منها ولا خير وراءها . وهكذا يتحوّل الكافرون دائمًا من ماءٍ إلى ماءٍ آخر آسنٍ وآجن . فإن أنسى الشّيطان الرّجيم المؤمن نفسه وأفاق فى أعماق خوض الكافرين بالباطل فى آيات الله تعالى فإنّ عليه بعد أن يتذكّر أن يغادر فورًا ، وعليه ألاّ يقعد بعد أن تذكّر مع القوم الّذين ظلموا أنفسهم وظلموا غيرهم . ولمّا كان كلّ شخصٍ مسئولاً وحده عمّا قدّم من خيرٍ أو شرّ فإنّ السّياق يطمئن المتّقين بأنّهم ليس عليهم من حساب الله تعالى للخائضين من شيءٍ وبأنّ الغاية من تبيين هذه القضيّة بأبعادها المختلفة وجوانبها المتعدّدة أن يتّعظ أولئك الخائضون فيكفّوا عن عبثهم لعلّهم يتّقون النّار باعتناق دين الإسلام والتّدرّج فى مراتب الصّلاح حتّى يصلوا إلى مرتبة التّقوى أو درجة الإحسان الوجه الآخر للتّقوى . فإن أصرّ الكافرون على لعبهم ولهوهم وجعلوا آيات الله تعالى وراءهم ظهريًّا فعلى المصطفى ﷺ أن يواصل القيام بالأمر الوحيد المطلوب منه دائمًا والّذى لا يملك غيره فى كلّ الأحوال وهو البلاغ والتّذكير بهذا الكتاب العزيز وإنذار أولئك الكافرين المعاندين الّذين أسلموا نفوسهم للهلاك وألقوا قيادهم للشّيطان الرّجيم فليس لهم من دون الله تعالى من وليّ ولا شفيع ولا يقبل من أيّ نفسٍ فداءٌ لأنّ مبدأ الفداء مرفوضٌ أساسًا ، ولأنّ الشّفاعة لا تتمّ إلاّ بعد أن يأذن الله تعالى لمن يشاء ويرضى ، ولأنّ الّذين أحلّوا نفوسهم وقومهم دار البوار لا مولى لهم بسبب

الذّنوب الّتى اكتسبوا ، والآثام الّتى أتوا . إنّ للقوم عذابًا باطنًا متمثّلاً فى الشّراب الّذى يتجرّعون حرارته الشّديدة الغليان ، وعذابًا آخر ظاهرًا فى نار الجحيم . وتجاه تحوّل الكافرين المتمادين فى غيّهم إلى الصّدّ عن سبيل الله تعالى ودعوة المسلمين إلى الارتداد للشّرك يأمر السّياق المصطفى ﷺ أن يسأل الحمقى فى إنكار : ﴿ أندعو من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرّنا ونردّ على أعقابنا بعد إذ هدانا الله كالّذى استهوته الشّياطين فى الأرض حيرانَ له أصحابٌ يدعونه إلى الهدى ائتنا ﴾ إنّ الكافر بمنزلة الحيران الّذى يجذبه إلى الشّرّ نفسه الأمّارة بالسّوء والشّيطان الرّجيم ويدعوه إلى الخير اصحابه المؤمنون السّائرون على المحجّة البيضاء بقيادة المصطفى ﷺ يدعونه إلى الهدى ائتنا فقد خرجت عن الصّراط المستقيم وابتعدت عن نور الهدى وطوّحت بك النّفس الأمّارة بالسّوء والشّيطان الرّجيم بعيدًا . إنّ عليك أن تتدارك الأمر قبل فوات الأوان بأن تأتي من المكان النّائى الّذى أنت فيه إلى الطّريق القويم والصّراط المستقيم . وفى حال الإصرار على الشّرك قل لهم إنّ الهدى الّذى بعث الله تعالى به محمّد بن عبد الله ﷺ هو الهدى الّذى لا هدى سواه ، وأمرنا لنسلم لربّ العالمين وأن نقيم الصّلاة وأن نتّقي الله تعالى الّذى نُحْشَر إليه يوم القيامة والّذى خلق السّماوات والأرض بالحقّ ، وأن نتّقي يوم القيامة الّذى يقول الله تعالى له كن فيكون . إنّ قول الله تعالى الحقّ هو الحق ، ولله تعالى الملك يوم ينفخ فى الصّور من أجل الحساب والجزاء ، والله سبحانه وتعالى هو عالم الغيب والشّهادة وهو الحكيم الخبير .

الآيتـــان رقـــم (٦٨,٦٩)

قال تعالى : ﴿ وإذا رأيت الّذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتّى يخوضوا فى حديثٍ غيره . وإمّا ينسينّك الشّيطان فلا تقعد بعد الذّكرى مع القوم الظّالمين . وما على الّذين يتّقون من حسابهم من شيءٍ ولكن ذكرى لعلّهم يتّقون ﴾ .

الآيتان الكريمتان امتدادٌ لتسلية المصطفى ﷺ والفئة المؤمنة القليلة العدد آنذاك فى هذه الفترة المكّيّة . والخطاب فى الآية الكريمة الأولى يتّجه إلى المصطفى ﷺ ابتداءً ، وإلى كلّ فردٍ من أفراد الأمّة الإسلاميّة وراء ذلك ، وبخاصّةٍ الصّحابة رضوان الله تعالى عليهم ، الّذين كانوا يعانون من المشركين أشدّ المشقّة ، فقد كانت الكلمة آنذاك ـــ بإرادة الله تعالى ـــ للمشركين . والآية الكريمة الأولى تقول للمصطفى ﷺ ولكلّ مسلم : إذا رأيت الّذين يخوضون فى آياتنا البيّنات بالباطل فأعرض عنهم وأظهر لهم عدم رضاك حتّى يخوضوا فى حديث غير القرآن الكريم . وإن أنساك الشّيطان الرّجيم فقعدت معهم ثمّ تذكّرت فلا تقعد بعد التّذكّر مع القوم الظّالمين . والآية الكريمة الّتى تتحدّث عن الكافرين تذكّرنا بآية النّساء ، الّتى تتحدّث عن المنافقين فى المعنى ذاته . قال تعالى(١) : ﴿ وقد نزّل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يُكْفَر بها ويُسْتَهْزَأُ بها فلا تقعدوا معهم حتّى يخوضوا فى حديثٍ غيره . إنّكم إذًا مثلهم . إنّ الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنّم جميعا ﴾ ويلاحظ بشأن المنافقين أنّهم فى غزوة تبوك حينما عوتبوا على استهزائهم قالوا : إنّما كنّا نخوض ونلعب(٢) فأنزل الله سبحانه وتعالى قوله عزّ من قائل(٣) : ﴿ ولئن سألتهم ليقولُنّ إنّما كنّا نخوض ونلعب . قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون .

---

(١) سورة النّساء ١٤٠ .

(٢) تفسير الطّبريّ ١١٩/١٠ وتفسير ابن كثير ٣٦٧/٢ وأسباب النّزول ٢٨٨ .

(٣) سورة التّوبة ٦٥ ، ٦٦ .

لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم . إن نعف عن طائفةٍ منهم نعذّب طائفةً بأنّهم كانوا مجرمين ﴾ .

ويلاحظ بشأن آية سورة النّساء أنّه يجيء فيها ما يتعلّق بالسّماع . قال تعالى : ﴿ وقد نزّل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها ﴾ والمعروف أنّ الأذن وسيلة السّماع وأنّها تعمل بإرادة صاحبها وبغير إرادته . بمعنى أنّ من لا يريد أن يسمع لا يملك إلاّ أن يغادر مكان السّماع . والمعروف أنّ المنافقين مندسّون فى المؤمنين ، وأنّ المنافقين يخوضون فى آيات الله تعالى بالكفر والاستهزاء . وربّما فوجئ المؤمنون بسماع مثل هذا الخوض فى آيات الله تعالى . فعلى المؤمنين المغادرة فورًا إن اصرّ المنافقون على مواصلة الخوض ، وعليهم ألاّ ينسوا أنفسهم مع المنافقين ، وألاّ يقعدوا معهم وإلاّ كانوا منافقين مثلهم . والمعروف أنّ السّماع إنّما يتمّ مع القرب وقد عرفنا اندساس المنافقين فى المؤمنين . والمعروف كذلك أنّ النّفاق إنّما وُجد فى المدينة المنوّرة بعد الهجرة بسبب قوّة المسلمين وضعف الكافرين ، فى حين كان الكفر سافرًا قبل الهجرة لقوّة الكافرين وضعف المؤمنين فى مكّة المكرّمة .

وما الّذى يلاحظ على آية سورة الأنعام المكّيّة ؟ يلاحظ أنّها تشير إلى الرّؤية وتتعامل مع العين : ﴿ وإذا رأيت الّذين يخوضون فى آياتنا ﴾ إنّ الكافرين الّذين كانوا يعلنون كفرهم على رءوس الأشهاد واستهزاءهم بآيات الله تعالى البيّنات على الملأ ، فى إمكان كلّ إنسانٍ أن يراهم فى كلّ مكان ، فلا خوف من الله تعالى يمنعهم ولا حياء من عباد الله تعالى يردعهم . وإنّ فى إمكان المصطفى ﷺ أن يراهم ، وفى إمكان كلّ مسلم أن يراهم كذلك . والمعروف أنّ حاسّة البصر هنا ابعد لأنّ النّاظر لأولئك الكافرين يعلم من أوّل نظرةٍ ووهلة أنّهم مستهزئون وقد لا يكون محتاجًا لأن يدنو من القوم حتّى تسمع أذناه ما يقولون لاعتيادهم إتيان المنكرات والقبائح .

وانظر إلى عمليّة الخوض الّتى جاءت الإشارة إليها فى الآية الكريمة مرّتين اثنتين . والمعروف أنّ الخوض يرتبط أساسًا بالمحسوسات ، بالماء الكدر الآسن ، وبالطّين والوَحَل ، ويستعار فى الأمور . وأكثر ما ورد فى القرآن ورد فيما يُذمّ الشّروع فيه[1] إنّ الكافرين يخوضون فى آيات الله تعالى بالاستهزاء والسّخرية . وعلى المؤمن إذا رآهم عَرَضًا وصادفهم اتّفاقًا أن يعرض ويصدّ عنهم صدودا ، ويُرِيَهُمْ عَرْضه وناحيته وجنبه دليلاً على الانصراف عنهم . وما الّذى ينتظر من هؤلاء الكافرين حينما يتركون الخوض فى آيات الله تعالى البيّنات . أن يتحوّلوا من خوضٍ إلى خوض ، ومن عبثٍ وسفهٍ ونزقٍ وطيش إلى نوعٍ آخر من العبث والسّفه والنّزق والطّيش . وهكذا يقضى الكافرون ، وكذلك المنافقون ، حياتهم فى التّحوّل من مستنقعٍ آسنٍ إلى مستنقعٍ آخر آسن . وهكذا تذهب أعمار الكافرين والمنافقين سدًى وأعمالهم هباءً .

فإن أنسى الشّيطان الرّجيم المؤمن فسمع ذلك الخوض فإنّ عليه حينما يتذكّر ألاّ يقعد مع القوم الظّالمين ، الّذين ارتكبوا أنواع الظّلم فى حقّ الذّات العليّة بصرف العبادة إلى من لا يستحقّها أبدًا ، وفى حقّ المؤمنين الّذين يسومهم الكافرون آنذاك سوء العذاب ، وفى حقّ أنفسهم وقد بخسوها حظّها وقذفوا بها فى مهاوى الرّدى.

ويلاحظ أنّ الآية الكريمة تنهى المؤمن عن القعود مع القوم الظّالمين وليس عن الجلوس مثلاً ، على الرّغم من كون هيئة القاعد والجالس واحدة ولكنّ الاتّجاهين مختلفان . إنّ اتّجاه القاعد من أعلى إلى أسفل وإنّ اتّجاه الجالس من أسفل إلى أعلى. يقال مثلاً : كان قائمًا فقعد وكان مضطجعًا فجلس . ومن البيّن أنّ الموقف يتطلّب النّهي عن القعود ، وبذلك يكون النّهي فى القول : ﴿ فلا تقعد ﴾ نهيًا فى الحقيقة عن نيّة القعود وقصد الاستماع ورغبة المشاركة . ومن البيّن أنّ القعود الّذى يعنى النّيّة هنا يعنى من باب الأولى والأحرى كلّ ما يترتّب على ذلك . إنّ النّهي

---

(١) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « خوض » ١٦١ .